المشرق

الطيّبة الذكر
جان درك البكر

بقلم الاب لويس شيخو اليسوعي

في ١٨ من نيسان الغابر لبست امّ الكنائس في رومية العظمى ابهى حُللها من الانوار الزاهية والتصاوير الرائعة والنقوش البديعة اذ برزت في بهرة كنيسة مار بطرس صورة فتاة باسلة شهمة يزين جبينها الطاهر تاجٌ من النور كانت حجبتهُ سحب الاهواء فانقشعت السحب ولاح مثال الطهر مندمجًا بملامح الفروسيَّة وثبات الجنان . تلك جان درك وكانت قبل استشهادها احتجَّت على قضاة الظلم الذين حكموا عليها فرفعت دعواها الى الكرسيّ الرومانيّ ملجأ كل طريد ونصير كل لهيف . فما اكتفى الاحبار الرومانيون ان برَّأوا ساحتها بل عقدوا على هامتها تاجًا من الفخر لا يمنحونهُ الّا لمن صرف الحياة بمراس اسمى الفضائل واجزل المبرَّات . ولم تقدم رومة على هذا الحكم النهائي الّا بعد الفحص المدقّق والنظر المليّ ومراجعة الوفر موَّلفة من الكتابات التي وضعها المعاصرون في هذا الصدد فانجلى لها اليقين وصدعت بالحقّ الظاهر واعلن حبر الاحبار بأن الفتاة الفرنسويّة جان درك احدى وليّات الله قد استحقَّت بحياتها البارَّة المملوءة تقىً وشهامة ان تُكرم في عداد الصالحين بصفة طوباويَّة . فكان لهذا التصريح أطيب وَقع لدى الكاثوليك بل المسيحيّين كلهم عمومًا وفي قلوب الفرنسويين خصوصًا . وقد دقَّت البشائر في كل الانحاء وأُقيمت الحفلات البهيجة في عاصمة الكثلكة اوَّلًا ثم في مدن فرنسة وسائر قراها فردّدت كل اصداء البلاد محامد ابنة قد ارسلها الله وأيدها بقوّتهِ لتنقذ وطنها من ايدي اعدائهِ وقد كادوا يجعلونهُ اثرًا بعد عين

وليس ذكر جان دارك في مجلتنا من النوافل فانّا نرى في تمجيدهـا في السنة الدستوريّة موافقةً لحالتنا فنعلم كيف الله وحده يعطي الملك من يشاء وينزعهُ عمّن يشاء وانهُ هو الذي يرفع الممالك او يهبطها وربّما اتّخذ لذلك الات ضعيفة لتظهر بها قوّة يمينهِ لئلَّا يفتخر ذو جسد امامهُ سبحانهُ ليس اله غيرهُ

وفي هذه النبذة افادة أُخرى للقرَّاء الكرام ان يكونوا على بصيرة من امر تلك الفتاة العجيبة التي ورد ذكرها في بعض المطبوعات العربيَّة . والكتبة الشرقيّون على وجه الاجمال لا يعتبرون في شخصها اللطيف ألَّا شهامتها واقدامها وخوضهـا ميدان الحروب فيكتفون بالقشرة ولا يذوقون اللبّ وربَّما نسوا الى مُخيّلة الفتاة ما نسبتهُ هي جهاراً الى دعوة الله ومشيئتهِ الصريحة فكانت لفرنسة في اواسط القرن الخامس عشر كدبورة القاضية في بني اسرائيل وكلتاهما انقذت شعبها من رقّ عبوديّة عدوهِ بالهام من الله.

وها نحن نلخّص مجمل حياة جان دارك القصيرة في كل اطوارها فنعتبرها كفتاة في ربيع عمرها ثم كوسيطة لوحي الله ودعوتهِ الخصوصيَّة ثم نتّبع اثارها في تحقيق دعوتها ونصر وطنهـا ونختم المقالة بذكر استشهادها الذي فتح لها باب الفخر والمجد

١ الفتاة البارَّة

كان مولد جان دارك في فرنسة على حدود ولايتي شمبانية ولورأن في قرية صغيرة اسمها دُمرامي على نهر موز وذلك في ٦ كانون الثاني من السنة ١٤١٢ يوم عيد الغطاس وهو عند الغربيين عيد المجوس كأنَّ الله رمز بذلك الى توطيدها امرش ملوك وطنها الذي كادت تتلهُ نكبات الدهر او اشار بهِ الى الكوكب المنير الذي قادهم الى مذود الفادي . وكانت المولودة خامسة ابناء والديها جاك دارك وايزبال روماي وكلاهما من افاضل تلك الناحية فكانا يُعرفان بتقاهما العظيم واستقامة سيرتهما وعيشتهما الساذجة وارتزاقهما من اعمال الفلاحة . وعلى ذلك ربّيا اولادهما جميعهم

ولنا على اعمال جان دارك منذ نعومة اظفارها الى الثالثة عشرة من سنّهـا اصدق الشهادات واثبت المعلومات . فانَّ التحرّيات والتحقيقات المدقّقة عن حياتهـا في بيت والديها قد أُجريت بكل تدقيق لدى كثيرين ممَّن عرفوها حقّ المعرفة وعاشوا معها وقد أُثبتت شهاداتهم بحرفها الواحد في مجموع واسع يتضمَّن كل تقاريرهم في حقّهـا مع

تفاصيل اعمالها واستنطاقها امام القضاة قبل الحكم عليها. وهذه الآثار لا تزال حتى اليوم محدودة لدى المحققين كموارد يقين وشواهد صدق لا يمكن نقضها وعليها شندنا روايتنا دون ان نضيف اليها شيئاً. وفي الحقيقة المحضة من القوة والنفوذ ما يفوق ترويق الكلام وزخرفة الباطل

اخبر الكاهن منصر الفتاة — وقد دُعيت في معموديتها جان اي حنَّة — انها نشأت في حجر والدتها فتربَّت على التقى وخوف الله حتى بلغت رشدها فكانت تتمم واجباتها الدينيَّة بخشوع وورع وترافق والدتها الى مزار قريب من قريتها كانت تُكرم فيهِ السيّدة البتول واخذت قبل العاشرة من سنها تثابر على الاسرار المقدَّسة وتدمن على تلاوة الصلاة وهي لم تعرف منها الَّا ما يعرفهُ الاميون كالصلاة الربيَّة والسلام الملائكي ودستور الايمان. وكانت اذا سمعت صوت الجرس طربت لنغماتهِ فترفع قلبها الى الله. وكانت مُحبَّةً للقريب لاسيما المساكين فتوزّع على الفقراء صدقاتها وقسماً من طعامها. فكان كل اهل القرية من صغار وكبار يعزّونها ويحبّونها للطفها وتقاها ويعرضونها على اولادهم كقدوة سيرتهم

ولم يخرج في اعمال جان درك شيء يدلُّ على افراط في الدين اويشعر بغرابة في العمل وانما كانت سلسة الطباع دمثة الاخلاق لينة الجانب تختلط ببِلداتها في ألعابهنَّ وتعيش بين اترابها دون ان تمتاز عنهنَّ بشيءٍ الَّا رزانة طبعها وتقاها

ومن خواصها في فتائها حبُّها للشغل فانها كانت تقضي أيام الربيع وفصل الصيف في اشغال الحقل مع اهلها فتحسن استعمال المرّ والمسحاة والمذرى وترعى المواشي واذا حلَّ الشتاء عمدت الى المغزل فكان الشغل ضامناً لحسن صحَّتها فترعرعت وهي شديدة البنية سليمة العقل لا تفكر في شيء غير الاعمال البيتيَّة والعيشة الاهليَّة بل لم تكن تعرف القراءة والكتابة فاقرَّت عن نفسها «انَّها لم تعرف قط الالف من الباء»

٢ صوت الله

تلك كانت جان درك اذ اراد الله ان ينتدبها لتقوم بعبء مهمَّة جليلة لم تكن لتخطر على بالها سابقاً اعني خلاص وطنها من ايدي الانكليز الذين كانوا استولوا على معظم ولايات فرنسة وضربوا فيها اطناب سلطتهم حتى كادت تلك الدولة ان تضحي في ايديهم كبعض اعمال بلادهم

وذلك ان سلالة ملوك فرنسة كانت انقطعت حلقاتها بانقطاع نسل السلالة الكبيتية فصارت حقوق الملك لفرع الفالسيين الّا ان ملوك انكلترة المتناسلين من اصل فرنسوي نازعوهم السيطرة مدّعين بانّ الحكم يرجع اليهم دون سواهم . ولمّا وجدوا فرنسة قد اضعفتها الفتن وهدّت ركنها الحروب الاهليّة وأصيب ملكها كرلوس السادس بمسّ في عقله انتهزوا الفرصة لمدّ ظلّ ولايتهم على اقطارها . فزحف هنري الخامس ملكهم على مدنها الحصينة وفتح مواقعها الحريزة موقعاً بعد آخر حتى لم يبقَ من تلك المملكة الواسعة الّا ما لا يُعبأ به . لاسيا بعد موقعة أزنكور حيث مُزّق شمل الفرنسويين كلّ ممزّق وبإثرها عُقدت معاهدة مدينة تروا (Troyes) حيث بايع ملك فرنسة بالملك لصاحب انكلترة وحرم ابنهُ عهد الوراثة وذلك في سنة ١٤٢٠ . واستفحل الشرّ وتفاقم الفساد بعد موت كرلوس السادس سنة ١٤٢٢ وكان هنري ملك انكلترة سبقهُ الى القبر ببضعة اسابيع الّا ان قوّاده لم يكفّوا عن الزحف تحت قيادة اخيه الدوق دي بَدْفُرد وباسم ابنه ووريث ملكه الصغير هنري السادس . وكان الفرنسويون ضمّوا قواهم وأقسموا بيمين الطاعة لكرلوس السابع ولم يريدوا غيره ملكاً الّا ان مساعيهم لم تأتِ بنجاح وكادت تسقط من ايديهم المدن القليلة الباقية على ولائها للملك الشرعي واستشرى الفساد بانقسام رؤساء الجند الذين كان كرلوس السابع اختارهم لحروبه . وفي سنة ١٤٢٨ حاصر الانكليز مدينة اورليان التي كانت تُعَدّ كآخر حصن للدولة الفرنسويّة حتى اذا فتحت ابوابها تُقضي عليها بالضربة اللازبة لكنّ الله لم يشأ انتقاض مملكة فرنسة التي طالما اتخذها كسور في وجه اعداء كنيسته وكنصيرة لحقوق نوّابه على الارض. وقد سمح عزّ وجلّ بان الصدع يتفاقم ويبلغ السيلُ الزُبى لييأس كلّ طبيب في الارض من حسم الداء. ويقرّ الجميع بانّهُ تعالى « يحط ويرفع ويحدر الى الجحيم ويُصعد » كما يقول الكتاب

وكان الرب منذ خمس سنوات يُعدّ الآلة التي اصطناها لتلك الغاية . فانّ جان درك في بعض أيّام شهر نيسان من السنة ١٤٢٥ اذا كانت تشتغل في بستان مجاور لبيت والدها تراءى لها ملاك ملتحف بالنور قال لها بانّهُ شفيع فرنسة ميخائيل واوصاها بالمواظبة على التُقى ولزوم الصلاح وحدّثها بما أُصيبت به مملكة فرنسة من البلاء . فذُعرت الفتاة من هذه الرؤيا وبقيت في دهشها مدّةً . وكان الملاك سبق واخبرها بان الشهيدتين كاترينا

ومرغريتا ستظهران لها فأوعز اليها ان تسمع منهما وتنقاد لاوامرهما . فما لبث الامر ان تحقق بظهور القديستين وتكررت الرؤيا غير مرة حتى تقدمتا اليها بان تذهب الى الملك كرلوس وتنقذه مما دهمهُ من الملمات

فكان هذا الامر على قلب الفتاة اشدّ من وقع الصوارم فـاخذت تتنصَّل وتتبرَّم وتعتذر قائلة انها ابنة مسكينة لا تحسن امتطاء الجياد ولا تدري بآداب الحرب . الّا ان « الاصوات » كانت تعود فتقرع مسامعها وتكرّر عليها الاوامر وتنشّطها وتبعث همّتها بقولهـا انهُ لا بُدَّ لها ان تُذعن لصوت الله فتمشي الى مساعدة ملكها وتتقدم جنودهُ حاملةً راية النجاة الى ان يستردّ ملكهُ المسلوب

فدامت تلك الاصوات العجيبـة تدوي في اذن جان درك ثلاث سنوات وهي تتمنّع غاية جهدها وتستنكف عن تلك الدعوة المخالفة لكل شواعرها واميال قـسها الى ان تحققت بانها اذا تخلّفت عن الامتثال لامر الاصوات تقاوم مشيئة الله الواضحة . وكان آخر ما سمعتهُ من القديستين كاترينا ومرغريتا : « اذهبي وبلّغي ملك فرنسة بان الله مُرسلكِ لتعيدي لهُ عرش ابائه وتحظيه بمملكته المفقودة . لا تخافي وكلي امرك الى الرب الذي يحرسك وها انهُ يفعل آية باهرة عند مثولك بين يدي الملك ليوقن ببعثك ويثق بكلامك »

ولعلَّ القارئ يوقفنا عند هذا الحدّ فيقول وما ادرانا بأنَّ تلك الرؤى والاصوات لم تكن فعل مُخيّلة او نوع من الخبال مُسَّ بهِ عقل الفتاة او نتيجة داء عصبي ألمَّ بهـا او حيلة احتالت بها لغاية بشرية

الجواب على هذا الاعتراض ان الابنة كما بيّنا سابقاً كانت سليمة العقل تامّـة العافية لم يُرَ قطّ في كل حركاتها وسكناتها ما يُشعر بحالة مرضيّة او اختلال في الشعور كما اقرّ بذلك مئون من الشهود الذين عرفوها قبل بعثها وبعدهُ من كهنة وعلماء وقوّاد وجنود . ثم انها سُئلت مراراً بازاء الفاحصين فكانت تنطق امامهم سواء كانوا اصحاباً او خصوماً برباطة جأش دون ان تغيّر في شهادتها شيئاً او يفعل فيهـا الوعيد وخوف الموت . ومن الادلّة على صدقها انَّ ما انبأتها بهِ تلك الاصوات قد تمَّ بحرفهِ في اوانهِ كما ظهر في مواطن الحرب وغيرها وتبيّنهُ رجالٌ خالون من الاهواء والاغراض بـل كانوا معادين لجان درك فاذعنوا للحقّ الظاهر بعد وقوع الحوادث . وزد على ذلـك انَّ الفتاة

المختارة لم تطلب في كل اعمالها غايةً زمنيّة من ربح او جاه او شهرة لأنها في كل اعمالها كانت تأنف ممّا يجلب اليها نظر الناس او يكسبها مديحهم او رضاهم ولمّا بعثت بصلاتها طفلًا صغيرًا بعد موته في لاني (Lagny) أبت ان تُنسب اليها تلك الآية فنسبتها لتضرُّعات الحضور

٣ قائدة الحرب

في تموز من السنة ١٤٢٨ تهدَّدت جنود الانكليز والبورغونيين المتحالفة مدينة ڤوكولور المجاورة لمسقط راس جان درك فخرجت الفتاة البكر وسارت الى القبطان المتولّي فئة من الجند في ڤوكولور المسمَّى روبرت دي بُدريكور فدخلت عليه بجرأة واعلنت لهُ بأنها مرسلة من الله لخلاص فرنسة وملكها. فتلقَّى الجنديّ هذا النبأ بالهزء والسخريّة وردَّ الفتاة خائبةً. وسمع ابو جان بما فعلت ابنته فتنمَّر من عملها غيظًا وزعم انَّهُ يؤثر ان يلقي كريمتهُ في النهر من ان يسمح لها بان تسير مع الجند. وبعد ذلك بقليل ألحَّت الاصوات السماويّة على جان فعادت ثانيةً الى دي بُدريكور وصرَّحت لهُ بأنَّهُ ان لم يقدها الى الملك ستسير اليه ماشية ولو انقرضت رجلاها في السير الى ركبتيها. فتعجَّب القبطان من عزمها وتوسَّط في الامر غيرهُ من الاهلين حتى رضي بان يكتب الى الملك في امرها فرضي الملك بانفاذها الى شينون شمالي براتيه حيث كان مقيمًا مع حاشيته وقوّاد جيشهِ

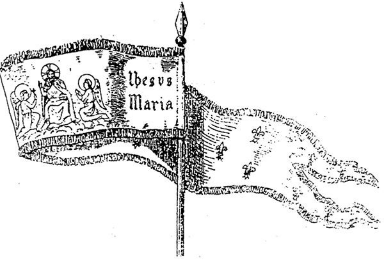
فلبست الفتاة بزَّة الفرسان وتقلَّدت سيفًا وركبت فرسًا اشتراهُ لها احد عمومتها في ڤوكولور فاخذ هذا المنظر بابصار الحضور ايّ مأخذ اذ رأوا بكرًا نقيَّة البشرة رشيقة القامة دعجاء العينين ذات شعر فاحم مسترسل على كتفيها يلوح على محيَّاها سيماء الحياء واللطف وتبدو من مخايلها امارات مضاء العزيمة بارزةً في اهبة الجند. لكنَّ الفتاة لم تكترث لاقوال الناس بل سارت مسرعة الى الملك كرلوس السابع. والحق يقال ان الامر كان ماسًّا واحوال فرنسة في اضطراب لا يوصف والكل ينتظرون من يوم الى آخر فتح مدينة اورليان. والملك قد اخذتهُ الحيرة لا يرى وجهًا للخلاص الّا الفرار الى اسبانية او اسكوتيا. فتجشَّمت جان سفرًا طويلًا مع فرقة من الجند المرافقين لها وكانت في طريقها تتقدَّمهم وتنشّطهم وتذهلهم بشهامتها رغمًا عن اتعاب السفر وقلَّة استعدادها لمثل هذه العيشة وكانت الاصوات السماويَّة تؤيد عزيمتها قائلةً: هيَّا لا تجزعي فانك انت

المندوبة من الله لتخلّص اورليان من حصارها وتقودي الملك الى رِمْس ليتوّج فيها ويُمسح بالدهن المقدّس كآبائه». فهذه الاقوال كانت «ابنة الله» تردّدها كما تسمعها من اصواتها فتمشي ويمين العلي تقودها بقوّة لا تستطيع مقاومتها مهما شاءت

دخلت جان مدينة شينون في ٦ آذار سنة ١٤٢٩ بعد ان سبقت واعلمتهُ بقدومها لكنَّ الملك شارل لم يظهر لاستقبالها ارتياحاً وخاف ان يهزأ بهِ الناس لتصديقهِ ابنة احد الفلاحين مختلّة الشعور لا خبرة لها بامور المملكة بل لا تعرف كما قالت الألف من الباء. لكنَّهُ سمع ما اخبرهُ عنها رجلان من اعيان الدولة كانا صحباها في الطريق فاطنبا لهُ في محامدها فاراد ان يختبرها وعقد لها حفلةً استدعى لها الوزراء وكبار دولتهِ ونخبة الاكليرس وتنكَّر الملك وجلس بينهم كأنَّهُ احدهم فأدخلت في ذلك النادي المهيب وهي ثابتة الجنان لم تعرف الملك ولم يعرفها فسارت توًّا اليهِ وسلّمت عليهِ خارَّةً عند اقدامهِ. ولمّا اراد الملك شرل ان يصرفها الى غيرهِ بحجّة انهُ ليس الملك قالت لهُ انَّهُ هو هو وليس غيرهُ ثم اعلنت لهُ برسالتها قائلةً: «انا عذراء مسكينة لكنّي مأمورة من الله أتيتكَ لشدّ أزرك وتبشيرك بنصر قريب على يدي» ثم حاول الحضور ان يختبروها وألقوا عليها الاسئلة العديدة وتفنّنوا في اغوائها وخداعها لكنَّها كانت تفحمهم وتجيب على كل المسائل حتى اغمضها برزانة عجيبة الى ان اخذ كثيرين منهم الاندهال كل مأخذ فصرخوا كسحرة فرعون عند بعثة موسى (خروج ٨: ١٩): «انَّ اصبع الله لههنا»

على ان الملك وارباب الدولة لم يقنعوا بذلك وعادوا الى امتحان الفتاة دفعات متوالية وهي تزيدهم دهشاً وحيرة بذكاء عقلها ولطف كلامها وشدَّة عزمها. وقد كشفت للملك سرًّا من اسرار قلبهِ لم يُبِح بهِ لأحدٍ من خواصّهِ كان يريبهُ منذ مدَّة ويشغل عقلهُ ويزعجهُ بخصوص والديهِ فلا يدري أهو والدهما الشرعيّ ووليّ عهدهما ام لا. فسبقت جان واوضحت لهُ افكارهُ وهو لم يفاتحها بالامر فافرجت كربتهُ واساغت غُصّتهُ فعدَّ ذلك آيةً من الله مؤيدة لصحة دعوة الابنة الوافدة عليهِ

وبلغ خبر جان درك اهلَ اورليان في حصارهم فثبتت عزائمهم ووطّنوا نفوسهم على شدائد الحرب واخذوا ينتظرون بفروغ الصبر ملاك السلام الموعود. امَّا الملك وعمدتهُ واهل بلاطهِ فكانوا متردّدين في امر الفتاة فلا يعلمون ما يصنعون فمنهم من كان يريد عضد جان درك وارسالها مع فريق من الجيش ومنهم من كان ينكر ذلك فكثر القيل



راية جان درك الموحى بها

والقال والايجاب والانكار حتى عاد الملك وألّف لها في بواتيه مجمعاً آخر من جهابذة العلماء الذين تفنّنوا فألقوا عليها مشكلات المسائل حتى اعيتهم الحيل وعادوا بالخيبة

وكانت احوال اورليان تزيد كل يوم حرجاً بهذا التريُّث والتردُّد والفتاة تنشدهم الله بان يتركوا الكلام الفضولي ويسرعوا الى العمل حتى اضطرَّتهم الى اختبار امرها فعلاً وكانت لا تزال تستمد في تلك البرهة معونة من السماء وتثابر على كل اعمال التقى كعادتها وتفتن الجميع بحماستها وتورُّعها معاً

فعوَّل شرل الملك على تجهيز فريق من جيشهِ في عدد عشرة الاف جندي مع جان درك واقام الفتاة «قائدةً على عسكرهِ» وعيَّن لها فرساناً يعضدونها ويجرون اوامرها ثم لبست عدَّة الفرسان وامتطت جواداً من اصيل الخيل كانت تجريهِ في الميدان بحذاقة غريبة وامرت أن يُصطنع لها راية على شكل ما رأتهُ في ايدي الملائكة وكانت الراية بيضاء من حرير في اطرافها الذهب تمثل السيّد المسيح بهيئة سلطان جليل جالس على السحاب تلوح في جسمهِ جروحات صليبهِ منيرةً وكان السيد رافعاً في يدهِ الشمال كُرةَ

ترمز الى العالم وهو يبارك بيده اليمنى ازهاراً من الزنبق شعار ملوك فرنسة يقدّمها له رئيسا الملائكة ميخائيل وجبرائيل وعلى جانب الراية اسما يسوع ومريم الكريمان

فهذه الراية الجميلة ركزتها جان درك في وسط الجيش وامرت الجند صباحَ مساء ان يحيطوا بها ويقيموا الدعاء الى الله بازائها بينا هي كانت تجثو على ركبتيها وتستحثّ بالصلاة امام الجميع · ولمّا اراد الملك ان يقلدها سيفاً كامرائه لم ترضَ بل دلّت بإلهام من الله على سيفٍ كان مطموراً في كنيسة على اسم القديسة كاترينا في قرية فياربوا على ستّ ساعات من شينون

فزادت بهذه العجائب ثقة الجنود بقائدتهم ومشوا في خدمتها مطيعين لاوامرها أطوع من بنانها · وكانت جان درك امرتهم جميعاً بان يطهّروا نفوسهم بالاعتراف عن خطاياهم وان يتقرّبوا من المائدة المقدّسة ويقبلوا القربان الطاهر · ثم سعت غاية جهدها بأن تستأصل من الجيش كل ما يغيظ الله من الآثام كالحلفان والسبّ والتجديف فضلاً عن السكر والفسق والمقامرة والعادات السيئة التي اشتهر بها الجند لاسيما في أيام الحرب

ثم ودّعت الملك وصرّحت له بالتفصيل ما سيجري لها وانّها ستخلّص اورليان وتُصاب بسهم في فتح البلد لكنّها لن تموت وانّها بعد نجاة اورليان تقود شرل الى رَمس ليُمسَح هناك ملكاً بالدهن المقدّس ويتوّج بحفلة حافلة وانّ هناك تنتهي دعوتها الّا انّ العدوّ سوف يُطرد من الوطن فلا يبقى أثرٌ للانكليز قبل سبع سنوات · وان هي قُتلت بامرهم كان قتلها اعظم ضرراً لهم من حياتها · وكل هذه التصريحات قد تمّت بحرفها كما سترى

كان بودّنا ان نتتبّع آثار تلك السَريّة ونروي بالاطناب ما حصل لها في زحفها على اورليان وفوزها التامّ بالعدوّ الذي كان محدقاً بالمدينة كالسوار بالمعصم وكاد اهلها يذوقون مرّ النكال لكنّ ذلك يؤدي بنا الى طول الكلام وقد اختصرت تلك الوقائع اختصاراً حسناً كاتبة اديبة من المسلمات السيّدة زينب بنت علي فوّاز العاملي في كتابها « الدرّ المنثور في طبقات ربّات الخدور » فننقل وصفها بالحرف (ص١٣٣) قالت:

« امرت باديء بدأة بتطهير العسكر من عواهر النساء وحضّت الرجال على الاستمساك بالتقوى والاعتصام بالرجاء. ثم زحفت على البلد فاستولى الرعب على قلوب الانكليز وقالوا: ما هذه بشرٌ إنْ هي الّا ملاك كريم او ساحر اثيم · وكانت ترتدي بحلّة

بيضاء وتركب جواداً اشهب وتنشر فوقها رايةً بيضاء. فاذا بصر بها الانكليز وهي في هذا المندام فرُّوا من امامها كأنهم حُمر مستنفرة فرَّت من قسورة (اي اسد) وما برحت تصدق الحملة وتتابعها وتُبلي بالعدوّ البلاء الحسن وهي تتجرَّع من انحراف جيشها عنها وعدم انقياده لها انواع الغصص وضروب الإِحَن حتى استتبَّ لها الفوز فضعف الانكليز واستكانوا وضربت عليهم الذلَّة اينما ثُقفوا فأُلجئوا الى الجلاء عن (والصواب عن) اورليان فكفُّوا عن حصارها في ١٨ أيار سنة ١٤٢٩ وانهزموا لا يلوون على شيءٍ»

وكانت جان في هذه المعركة الاولى أُصيبت بسهمٍ في صدرها فنزعتهُ بشهامة ولم تُبالِ بالوجع وكذلك رشقها في واقعة ثانية نبلٌ من نبال الانكليز في ساقها فتجلَّدت ولم تزل سائرة الى الامام. وممَّا يجدر بنا ذكرهُ انَّ جان درك في واقعة اورليان كما في بقيَّة حروبها لم تضرب احداً ولم تسفك نقطة من الدم بسيفها وانما كانت تتقدَّم الجند وتتسلَّق الاسوار وتحضُّ المحاربين بصوتها وتشيرُ اليهم برايتها المقدَّسة التي كانت تحملها بيدها وترفعها فوق رؤوس الجنود ليتقفَّوا اثارها وبعد فوز جيشها بالعدوّ كانت تمنعهم من الفتك بالاسرى وتضمّد جراحات الجرحى بايديها سواء كانوا من قومها او من عُداتها وتعطف عليهم وتبكي لاوجاعهم كالامّ الحنون. وكانت اذا أُعلن بالانتصار توارت مختفية في احدى الكنائس لتصلّي وتهرب من ثناء المهنّئين

ولم تُخلد جان الى الراحة بعد فتح اورليان الذي تمَّ لها بسبعة أيام فقط وكانت تقول علانيةً انَّ مدَّتها لا تطول كثيراً على سنة واحدة فاسرعت وعادت الى الملك شرل فاكرم وفادتها واعدَّ للتحفّي بها وليمة فاخرة لكنَّها لم ترضَ قائلة: «انَّ الحاجة ماسَّة والوقت قصير فلا يليق ان نضيعهُ بالقصف واللهو فسراعِ ايُّها الملك هيَّا بنا الى رنس» ولم تزل تلحُّ عليه ايَّ إلحاح وهو يتردَّد ويتبرَّم حتى غلبت معارضتهُ

الَّا ان الطريق بين اورليان ورنس كانت طويلة محفوفة بالاخطار وبين المدينتين جيوشٌ جرَّارة من الانكليز قد استولوا على احصن المواقع واحرز المدن كباتاي (Patay) واكسار (Auxerre) وطروا (Troyes) وكان الفرنسويُّون لا يتقدَّمون الى جهة رنس الَّا تُناصبهم قوَّات العدو تحت قيادة امراء وابطال مظفَّرين طالما نجَّذتهم التجارب وحنَّكتهم الحروب. فكان قوَّاد الفرنسويين اذا ساروا بجيوشهم اميالًا زاد اضطرابهم وقلقهم ويرون انَّ مناجزة القتال تهوُّر وسفه لكنَّ جان درك كانت تلاشي

القلوب ثقةً بجلدها وثبات جأشها حتى كادوا يتبعونها على رغم منهم كرهين

وقد جرت الامور كما تنبأت فكانت حيثما تسير تقطع نظام العدوّ وتمزّق شملهم وتكبّهم على الأعقاب حتى عدُّوها كداهية الحروب او من مردة الجنّ. وكانت الفتاة تكلّم القوّاد كأنها واحدة منهم وربما اعلنت لهم ما ارادوا ان يخفوا عنها وتتصدّى لآرائهم اذا وجدتها مخالفة لما الهمتها الاصوات فتضطرّهم الى ان يصادقوا على زعمها فاذا تبعوا وجدوا الفوز والنجاح واذا تعدّوا قولها فشلوا وندموا. وكانت جان مع ذلك طيّبة الروح فكهة اللسان تمزج كلامها بشيء من المزاح. فمن ذلك قولها للدوك دي ألنسون في بعض المعارك: «طِبْ نفساً ولا تخف عدواً فاني وعدتُ الاميرة قرينتك بان اعودُ بك سالماً». ومنها جوابها الى احد الفاحصين عن امرها وكان خشن الكلام ثقيل اللسان فسألها هل الاصوات التي تسمعها فصيحة هي فاجابت: «نعم سيّدي انّها افصح من لسانك وابلغ من منطقك». فأفحمتهُ. وكانت جان وعدت الملك شرل بانها تدخلهُ رِمْس دون ان يخترط سيفهُ من غمده فتمّ الامر كما قالت فكان ودخل المدينة بأبّهة عظيمة في اليوم الذي قرّرتهُ جان درك بعد ان ألجأت اهلها وحاميتها الى طلب الصلح لما داخلهم من الرعب والهلع لقدومها. وكان ذلك في منتصف شهر تموز. وفي ١٧ منهُ أُقيمت حفلةٌ حافلة لا يفي بوصفها قلم وبها مُسح شرل السابع ملكاً على فرنسة بالزيت المقدّس الذي كان يُصان في كنيسة المدينة الكاتدرائيّة في قارورة شهد المؤرخون على انّ حمامةً اتت بها من السماء على طريقة عجيبة يوم مُسح اوّل ملوك فرنسة الملك كلوڤيس على يد القدّيس ريميجيوس اسقف رِمْس

وكانت جان في ذلك اليوم واقفة على مقربة من الملك وفي يدها رايتها الظفرة وعلى جانبها ابوها وعمّها كادا يطيران من الفرح لما نال عزيزتهما من المجد الاثيل. وكانت عيون الجميع شاخصة الى تلك الفتاة السماويّة ولسان حالهم يردّد فيها ما قالهُ اهل اورشليم يومَ ظفرت يهوديت باعداء اسرائيل: انت مجد وطنكِ انت فرح شعبكِ انت فخر كل بلادنا

٤ الشهيدة

كانت دعوة جان درك على ما قالت لها الاصوات العلويّة تمّت بتتويج الملك شرل على فرنسة لأنّها بذلك مهّدت الطريق للانتصار التامّ على اعداء بلادها. فلمّا انتهت

تلك الاعياد البهيجة جثت لمام الملك وطلبت منهُ ان يُطلق سراحها فقالت: «قد فُزتَ ايها الملك الجليل بالنصر الموعود ونهجتُ لك السبيل فالزمها تَفزْ بعدوّك امَّا انا فقد قمت بأموريَّتي وانجزتُ وعدي وما بقي لي الآن الّا ان اوريك الوداع واعود الى بيت ابي قرية العين فأرعى الماشية كمألوف عادتي واغزل الصوف في كنف والدتي كما نشأتُ عليه»

لكنَّ الملك ابى ان يجيب الى ملتمسها ولم يزل ملحًّا عليها الى ان اقنعها فلم ترَ بدًّا من مرافقة جنودهِ في حروبهم فسارت تتقدَّمهم كما فعلت سابقًا واظفرتهم بعدوّهم مرارًا حتى انَّ الملك جازاها واسرتها كلهم بمنحهم رتبة الاشراف دون النّاس منها

ومع ما ابدتهُ حينئذٍ من اعمال الفروسيَّة والبأس كانت لا تزال تسمع اصواتها تنبئها بما سيحلُّ بها من الشدائد فكانت الفتاة تنتظرها بعزم وثبات مسلّمة بامرها لارادة الله. لاسيما ان تلك الاصوات كانت تنعشُ قواها وتعدها بالفوز النهائيّ

وبقيت جارية على خطَّتها من الإقدام والتحمُّس مع ملازمة اعمال البرّ والتقى الى شهر ايار من السنة ١٤٣٠ حيث جُرحت في كمبيان فأسرها احد الامراء المحالفين للانكليز ثم غدر بها واسلمها الى اعدائها واخذ كيودلس حقَّ خيانتهِ وبأسرها صحَّ قولها للملك وحاشيتهِ انَّ ايَّامها بينهم محدودة لسنةٍ وبعض سنة. وكانت القديستان كاترينا ومرغريتا في عيد الفصح من تلك السنة ظهرتا لها وانبأتاها بقرب وقوعها في ايدي العدوّ فلم يبقَ لها الّا ان تشرب الكأس التي اعدَّها الله لها فتنال الرفعة بالصليب والمجد بالآلام

وكان يوم سقوطها في ايدي العدوّ يومًا مشئومًا على الفرنسويين وهو الرابع والعشرون من أيار ١٤٣٠ وعدَّهُ الانكليز نصرًا باهرًا وقد ابتاعوها من الذي اسرها بمبلغ من المال كان في ذلك العصر يُدفع كديَة الملوك وحدهم

ومنذ ذاك الحين دخلت جان درك في درب صليبها الذي تعدَّدت مراحلهُ وطالت مدَّتهُ الى سنةٍ بنيّفٍ فكبلّوها بالقيود واذاقوها مرَّ العذاب ونقلوها من مدينة الى مدينة ومن سجن الى آخر وهي مع ذلك تحتمل تلك الاوجاع بصبر جميل وكانت في عزلتها تضيق نفسها وتأنف من سوء معاملة اعدائها وتسعى ان تفرَّ من ايديهم لتعود الى معسكر الفرنسويين. واذ وجدت يومًا وجهًا للخلاص قفزت من اعالي البرج الذي حُبست فيهِ الى الحضيض دون استشارة اصواتها فجُرحت لكنَّ جرحها برئ بنوع

عجيب وكانت اصواتها مع ذلك لا تفارقها فتتراءى لها القديستان حيناً بعد حين وتنعشان قواها وتوطّنان نفسها على مقاساة مضض الحبس بل الموت نفسه لأنها بذلك تظفر بما هو اعظم من كل حطام الدنيا . فظهرت الفتاة في أيام نكبتها اكبر منها في مواطن شرفها وانتصارها

وفي اواسط شباط من السنة ١٤٣١ باشر اعداء جان درك من الفرنسويين المحالفين للانكليز فحص دعواها لعلّهم يجدون في سيرتها علّة ليحكموا عليها بالموت وكان متولّي تلك الدعوى اسقف بوفه الدعو كوشون فاحضرها امامهُ واستنطقها ثمّ سيقت بعد ذلك الى المحكمة ست عشرة مرّة أبدت في خلالها من جزاءة الصدر واطمئنان الجأش ما اذهل قضاتها انفسهم وكان هؤلاء يلقون عليها الاسئلة المشكلة عن دعوتها واصواتها وايمانها وغايتهم ان يوقعوها في مغواة تمكّنهم من الحكم عليها . الّا ان جان كانت تجيب على تلك المعمّيات بوضوح وصراحة لا تبقي لأحد عليها مأخذاً . فنفت عن نفسها الشكاوى التي اخترعوها عليها كاتهامها بالسحر وغير ذلك ممّا بيّنت كذبهُ بدقّة عجيبة حتى انّ الحضور كانوا عند سماع قولها يصرخون علانيةً : « يا حبّذا الجواب . ما اصدق قولها حيّاكِ الله نعمّا قلتِ »

وكان آخر ما وجد هؤلاء قضاة الظلم ليقرفوها به ويحكموا عليها انهم نسبوا اليها البدعة ولاموها على ابسها لبس الرجال وانّما فعلت ذلك تعفّفاً وصوناً لطهرها بين الجنود فقضوا عليها بالسجن المخلّد « وبان تقتات بخبز المتاعب وتروى بمياه الاوجاع »

ثم دسّوا لها دسيسة فنزعوا عنها ثياب النساء في حبسها فلم يبقَ لها غير لبس الفرسان فلبستهُ مضطرّةً واتخذ اعداؤها هذا العمل كعصيان لاوامرهم فحكموا عليها بان تُحرق حيّةً كما يُحرق الهراطقة المبتدعون المصرّون على عنادهم . امّا جان فاذ علمت انّ فوق حكم هؤلاء الظالمين حكماً آخر اعلى واعدل وهو حكم الحبر الروماني طلبت بان يُرفع اليه دعواها فلم يعيروا احتجاجها بالًا واستعدّوا لانفاذ الحكم فيها

ولما رأت الفتاة انّ يومها الاخير قد قرب أُصيبت بقشعريرة واكتأبت لجور القضاة لكنّها تذكّرت ما قالتهُ لها الاصوات انّها ستموت شهيدةً فاستعدّت لمقابلة ربّها بطلب الاسرار فاعترفت بذنوبها وتناولت القربان الاقدس مذرفةً للدموع السخينة ثم التفتت الى احد الحضور قائلة : « في مساء هذا النهار بنعمة الله اكون في الفردوس »

ولما حانت ساعة موتها البسوها ثوبًا طويلًا ابيض وجعلوا على راسها قرطاسًا كتبوا فيهِ ما شاءُوا من علل موتها وقادوها بين شرذمة من الجند الى مصطبة عالية ليحرقوها. وكان آخر ما فاهت بهِ انَّها لم تصنع ما صنعت الَّا بامر من الله وانها تستأنف حكمها الى الحاكم الازلي العظيم ثم دعت باسمي يسوع ومريم الكريمين وكرَّرت دعاءها بصوت جهور وقبَّلت صورة المصلوب وبقيت شاخصةً اليهِ حتى تطايرت نفسها الى الاخدار الابديَّة. وقد وقعت وفاتها الصالحة في ٣٠ أيار من السنة ١٤٣١

• الفتاة الممجَّدة

انَّ مجد جان درك كمجد المسيح سيّدها قد ابتدأ يوم وفاتها فكان موتها هو الفوز العظيم الذي اشارت اليهِ اصواتها. واوَّل آية ظهرت اذ ذاك انَّ احد الجنود الحاضرين للتمثيل بها رأى نفسها على شبه حمامة تُحلّق الى السماء كأنَّها طائر أُطلق من اسارهِ. واعجب من ذلك انَّ جسمها صار بعد قليل الى رماد واحترقت عظامها لكنَّ النار لم تمسَّ قلبها واحشاءها فبقيت سليمةً بآيةٍ باهرة اوجبت كاتب ملك انكلترة ان يصرخ: «ويلٌ لنا قد احرقنا فتاةً بارَّةً قديسة». وكثير من اعداء جان اجهشوا بالبكاء وقرعوا الصدور ندامة فانَّ المسجّل لحكم موتها قضى شهرًا بتمامهِ يبكي على المظلومة ليلًا مع نهار. والاسقف كوشون قاضيها نفسهُ لم يتمالك من البكاء على تلك التي كان هو علَّة موتها. امَّا الجلّاد الذي ربطها على الخشبة قبل حرقها فانهُ لمَّا رأى النار قد صانت قلبها ركض مسرعًا الى دير قريب صارخًا: «أيا تُرى يغفر الله لي الاثم الذي اجترحتهُ في هذا النهار»

ومذ ذاك الحين جعل الناس يكرمون جان درك ويعتبرون تلك الراعية كراعية أُخرى كانت في سالف الازمنة خلَّصت بلادهم من البرابرة اعني جنفياف التي نجَّت باريس من اتيلا ملك الهونيين. وزادت ثقة القوم بشفاعتها لمَّا رأوا بعد سنين قليلة «كسرة الانكليز وخروجهم من تخوم البلاد لم يُبقوا فيها غير عظام موتاهم» كما انبأت بوحي من الله. فانَّ باريس عاصمة الدولة رجعت الى طاعة ملكها واستردَّ شرل كل المدن والقلاع التي كان ضبطها العدوّ منذ أيام جدّهِ ووالدهِ

وممَّا اظهر على رؤوس الاشهاد مجد بكر اورليان انَّ الاعداء الذين حكموا عليها ظلمًا أُصيب معظمهم بآفات شتى وعُوقبوا انكأ العقوبات فمات الاسقف كوشون اوحى

ميتة. وقضى المدّعي عليها نحبهُ في اسوأ حال. ومات بالبرص الخطيب الذي حلّل موتها.
وأسر الفريق بدفورد الذي استأسرها فحُبس في روان في عين القصر الذي حُبست فيه
جان درك فنُكّل بهِ كما نُكّل بها وصار للجميع عبرة ظاهرة

وفي منتصف شهر شباط من السنة ١٤٥٠ امر البابا كالسطوس الثالث الملكَ
شرل بان يؤلف لجنة من كبار الفقهاء وارباب الدين ليعيدوا النظر في دعوى جان درك.
وكان امر البابا كجوابهِ لها لمَّا رفعت دعواها الى الكرسي الرسولي فأُستؤنف فحص
الدعوى وبعد ثلاث سنوات من بحثٍ مدقَّق اتّفق اهل الديوان على نقض حكم
الاسقف كوشون وحزبهِ واجمعوا على تزكية جان درك

فحدّث عمَّا اصاب عموم الفرنسويين من الفرح ولا حرج ومن ثمَّ اخذ الاهلون
يطنبون في محامد تلك البكر الشهمة فجمعوا اخبارها ومثَّلوا على المراسح بسالتها
واستعانوا بكل الفنون الجميلة لتعظيمها فأُقيمت لها أُلوف من التماثيل البديعة والصور
الجميلة وانشد الشعراء القصائد الغرَّاء في مدحها (١. وكانت مدينة اورليان في مقدَّمة
المدن التي اكرمتها واتَّخذتها لها شفيعةً ومنذ سنين عديدة لم تزل تقيم في كل سنة حفلةً
دينيَّة بهيجة في ١٨ أيار تدعو اليها الذوات والاعيان ذكرًا لتلك العذراء التي ظهرت في
زمانها كسيف الله الذي قشع دجى الظلام بنورهِ اللامع فكشف كربة فرنسة وردّ
اعداءها خاسرين

واليوم قد بلغ شرف جان درك اوج رفعتهِ اذ رنَّ في العالم صوت الحبر الروماني
فلم يزكّيها فقط من كل وصمة ألحقت بها بل توَّج هامتها بتاج يفوق تيجان الملوك
ونظمها في قلادة العذارى القديسات اللواتي يتبعن الحمل حيثما سار كحاشيتهِ الخاصّة.
ولا غرو فان بكر اورليان لم تخدم عاهلًا ارضيًا بل ملك السماء وحدهُ

اخبر الذين رأوا جان في بلاط الملك شرل بعد قبضهِ لزمام الملك في رمس أنها

---

١) ومن عجيب الامور انَّ الزنديق ڤولتار شتم تلك الفتاة السماويّة كما رشق بلسانهِ النذل كل صالح وجميل. قالت السيّدة زينب في كتاب ربَّات الخدور ونعم القول (ص ١٢٤): « قد عاب الرأيَ العام فوليت (تريد ڤولتار) بقصيدتهِ التي اودعها ذمّ جاندارك وتسويد صحيفتها بانواع السبّ الظالم والقذف النادر ولكنَّهُ لا يُستغرَب ذلك ممَّن اوقف حياتهُ على تقويض عمد الديانات وتريبف اوليائها »

دخلت يوماً عليهِ فقال لها : ايتها العزيزة بماذا نجازيك عن اعمالكِ الشريفة . فقالت لهُ : انا اطلب منك عوضاً عن اتعابي نعمة واحدة أتعدني انك لا تنكرها عليَّ . فقال : لكِ ما شئتِ ولو طلبت مملكتي . فقالت : وهذا الذي ارغبهُ منك . ان تمنحني المملكة كلّها ساعةً وتكتب في ذلك صكًّا تمضيهِ بيدك . فتعجّب الملك من طلبها لكنّهُ فعل كما وعد . فلمّا صار الصكُّ في يد الفتاة انطرحت امام الراية التي كانت تتقدّم بها في الحروب وعليها كما قلنا صورة السيّد المسيح على هيئة ملكٍ جليل فأهدتهُ مملكة فرنسة ليكون هو ملكها الابديّ . ثم قامت وانطرحت عند اقدام الملك قائلة : « اعلم انَّ مملكة فرنسة هي ملك المسيح وحدَهُ . وقد اثبتُّ ذلك بقرارك الجديد فاملك عليها لا كملك مستبد بل باسم الذي يجعلها تحت حكمك لتكون كامل لهُ فتدبّرها باسمهِ »

فكان لهذا الكلام اطيب وقع في نفس الملك واثّر في كل الحضور الذين تأكّدوا دون ادنى ريب بانَّ بعثة جان درك كانت كأنَّها من السماء . وقد لاح الامر بعد ذلك بمئة سنة باجلى برهان لمَّا انفصلت انكلترة عن الكنيسة الكاثوليكيّة وتورَّطت في البدعة والضلال فانَّ فرنسة كانت في وجه الهرطقات كسور منيع ردَّ كيدها في نحرها . ولو استولى الانكليز على فرنسة في ايّام شرل السابع لكانت ذهبت ابنة الكنيسة البكر كبريطانيَّة العظمى فريسة الكفر والبهتان

فعسى ان يكون اليوم تمجيد جان درك كفاتحة عصر جديد لفرنسة فتقوى الكنيسة على الشيع الكفريّة التي مدَّت عليها سيطرتها وجاهرت الدين بحروب عوان . فلتقم ثانيةً وتبدّد اعداء الله فيعود لفرنسة بهاؤها وعزّها السابق وتضحي كما كانت سيف الله في ارضهِ لنصرة الحق وتعزيز الصخرة البطرسيّة

(حاشية) قد نبّهنا القرّاء في مطاوي الكلام على تقصيرنا في وصف اعمال بكر اورليان . على انا ننتهز هذه الفرصة الجديدة لنثني على الترجمة المطوّلة التي وضعها منذ عهد قريب احد افاضل الرهبان حضرة الاب ثرنيه اليسوعيّ وقد دعا المؤلف كتابهُ «سيرة حسنة درك البكر الكريمة مخلّصة مملكة فرنسا» وقد اودعهُ مآثر تلك الفتاة الشهمة في دينها ودنياها . فنحضُّ الشرقيين على مطالعتهِ في هذه السنة خصوصاً التي فيها شاع اسم جان درك بترخيص اكرامها على المذابح

وكنّا انتهينا من تسطير هذه المقالة اذ وقع نظرنا على مجلّة العالمين (Revue

des deux Mondes, Avril, 1909, p. 913—934) الفرنسويّة فوجدنا في مقالة مطوَّلة ذكر كتابين في هذا المعنى الاوَّل لاحد الفرنسويين قد أعمى الهوى والالحاد ابصارهُ وهو اناتول فرنس (A. France) صنَّفهُ للتشنيع على جان درك والازراء بها وقد ادَّعى انهُ كتب ما كتب بنزاهة مستندًا الى الاسانيد الصحيحة فكان لتاليفهِ اسوأ وقع في القلوب ليس في فرنسة فقط بل بين الاجانب ايضاً وممَّن تحرَّى تكذيبهُ احد البروتستانت في انكلترة اندرو لنغ (And. Lang) من بلاد اسكوتيا فوضع كتاباً كان باشر في تأليفهِ منذ عدَّة سنوات فانتهى منهُ آخرًا وردَّ فيهِ على كل مزاعم اناتول فرنس واسم كتابهِ «ترجمة فتاة فرنسة» (Maid of France) وهو تأليف جايل في كل اقسامهِ من حيث مضامينهِ وبلاغة انشائهِ وصدق مصادرهِ فجاء اسنى هديَّة قدَّمها رجل منزَّه عن الاغراض الدينيَّة والسياسيَّة لعدوّ بلادهِ واقرَّ جهارًا بانَّ حياة جان درك واعمالها اعجوبة باهرة لا يستطيع احد ان يدركها ما لم ينظر ما فوق الطبيعة. وهذا الرأي اليوم هو الرأي الغالب في انكلترة (Etudes, 20 Avril, 1909, p. 184-205)

امَّا الكتاب الثاني فهو لحضرة الاب البندكتي دون لوكلارك (Dom Leclercq: *Les Martyrs. VI: Jeanne d'Arc, Savonarole*, Oudin et Cie Paris, 1908) جعلهُ الجزء السادس من مجموعهِ في الشهداء النصارى ضمَّنهُ الاخبار التي رويناها مع ذكر شواهد منقولة عن معاصري جان درك

بديعة ابراهيم خيكي

توطئة

في مكتبة باريس العموميَّة عدَّة مخطوطات عربيَّة يتجاوز عددها ٣٠٠ حصلت عليها عمدتها بالشراء في هذه السنين الاخيرة وقائمة هذه المؤلفات لم تُنشر بالطبع مع المخطوطات العربيَّة التي وصفها المستشرقان دي سلان (G. de Slane) وزوتنبرغ (H. Zotenberg) لأنَّها دخلت في ملك الدولة بعد نهاية طبع قائمتها. وفي رحلتنا الى باريس العام الماضي وقفنا على بعض هذه المخطوطات الجديدة فنقلنا عنها ما رايناهُ مفيدًا لقراء المجلة. ومن جملة تلك الآثار مجموع نصراني

يحتوي عدَّة منتخبات من كتبة نصارى خطَّ سنة ١٨٣٥ برسم الشمَّاس دانيال الراهب الحلبي وهو الذي سُقِّف بعد ذلك على القلاية البطريركيَّة وعُرف باسم المطران مكاريوس حدَّاد. وفي الصحيفة ١٦٩ منهُ بديعيَّةٌ ألفها سنة ١٧٣٣ احد ادباء النصارى في حلب اسمهُ ابراهيم خيكي الحلبي جرى فيها على طريقة بعض اهل البديعيَّات فالتزم في كل بيت نوعاً من البديع مع تسمية ذلك النوع فجمع في قصيدتهِ ١٥٢ شكلاً بديعيًّا. وفي بعض هذه الابيات تعسُّف ظاهر كما يرى في بديعيات اسلافهِ. امَّا معاني هذه البديعية فرجعها الى مدح النصرانية وذكر مفاخرها والثناء على منشئها الالهي ورسلهِ الاطهار وكنيستهِ التي وَكل تدبيرها الى بطرس الهامة. فاحببنا نشرها قبل ان تأخذها ايدي الضياع. امَّا ناظمها فلم نجد لهُ ذكرًا في ما لدينا من اخبار حلب المستحدثة. ولعلَّ احد ادباء الشهباء يمكنهُ ان يسدّ الخلل فيفيدنا عنهُ شيئًا ولهُ منا الشكر سلفًا ل. ش

براعة الاستهلال	براعتي في امتداحي مَنهَلَ النعَمِ	قد استهلَّت بديع النظم كالعلَمِ
الجناس المركب	قد هام قلبي بتركيب الغرام فقلْ	بي ما تشا مطلقًا لم تقتصر هممي
الجناس المقلوب	كم ضلَّ لاحٍ بلفظٍ طلَّ ينشدهُ	والقلب ما مالَ لمَّا لامَ للندمِ
الجناس الملفَّق	في المنهل العذب لا يختار مع ظما	مضنًى بتلفيق ما يرويه من عظمِ
الجناس المطرَّف	قد صاح داعي الهوى تمَّت دعوتهُ	وزدتَ يا صاحِ تطريفي ولم أُلمِ
الجناس اللاحق	ان ذُيّل الحبُّ حبلَ الوصل منهُ بلا	فصلٍ لحقتُ بنيل الجود والكرمِ
الجناس المصحَّف	وقد تصحَّف حبُّ الغيد عندي كما	تحرَّفَ القلب عن ذا السقم بالقسَمِ
الجناس المعنوي	وملتُ نحو ابن نواء المعنوي عسى	يجير لي كابنِ رعدٍ او ابي الامم
الاستطراد	مستطردًا خلفهُ خيل الغرام ولم	اخشَ النكال ولو فيهِ يُراقُ دمي
الافتنان	وصرتُ في حبهِ والافتنان بهِ	انمي زمانًا مضى هدرًا بغيرهم
التخيير	وقد تخيَّرت موتي في محبَّتهم	ولو طلبتُ سواهُ متُّ من ندمِ
ردّ العجز على الصدر	صدر المعالي لهم ترتدُّ راجعةً	كردِّ عجزِ أعاديهم لصدرهمِ
القول بالموجب	قد اوجبوا القول أني عن محبَّتهم	قد ملتُ قلتُ الى الاتلاف والعدمِ
التذييل	وطال تذييل سهري في الغرام وقد	نام الخليُّ ومُضنَى الحبّ لم ينمِ
الالتفات	ومذ نأوا عن عياني عدتُ ملتفتًا	سيروا الهوينا بقلبي وارحموا سقمي
الاستعارة	ساروا بجيل غرامي عندما استعرتْ	نار الجوى في ضميري يوم بينهمِ
الاستخدام	واستخدموا في الدجى نجمًا ليرشدهم	وقد رعتهُ ضحًى أنعامُ سربهمِ
الاكتفاء	وما اكتفيتُ بتمهيد الطريق لهم	بل رمتُ تثبيت منها شمل كلِّ كمِ .

الطباق	طابقتُ ان بدَّلوا قربي ببعدهمِ	ولا اطابقُ ان شحُّوا بوصلهمِ
المناقضة	ناقضتُهم ان نوَوْا هجري ولو بُدلت	حالي وعدتُ رضيعًا غير منفطمِ
المقابلة	قابلتُ ذلّي وفقري شقوتي تهمي	بعزّهم والغنا والسعدِ والنِّعَمِ
ارسال المثل	صبرتُ في الحبّ حتى قلت ممتثلًا	مَن حاول الكيَّ فليصبر على الالمِ
الالتزام	جعلتُ حبَّهمُ في النـاس ملتزمي	وعن هوى غيرهم اعدو كمنهزمِ
المراجعة	قالوا تُراجعهم ذُلًّا فقلت نَعَمْ	قالوا لِمَ قلتُ هذي شيمة الخدَمِ
تشابه الاطراف	بهم تشابهُ أطرافٍ حلَتْ بهمِ	بهم أهيم ولو طال المدى بهمِ
الاستدراك	قالوا القريبُ تناسى حبَّهم وسلا	فقلت مستدركًا لكن على ضرمِ
المواربة	واربتُ مذ لامني اللاحي وقلتُ لهُ	حييتَ يا سمجَ الاخلاق والشيمِ
الهزل المراد به الجدّ	بالجـدّ هازلني صحبي بقولهمِ	يهنيك أخصِب بجسمٍ مذرأوا ورَمي
الإيهام	وأبهمَ النُّصح عذّالي بشفقةٍ	وليتَ شقَّ الحشا من قبل نصحهمِ
النزاهة	لمَّا اختبرتُ امورًا منهمُ صدرت	تزهت قلبي بحقٍّ عن ودادهمِ
الهجو بمعرض المدح	هجا بمعرضِ مدحٍ عاذلي شرفي	يقول سرتم بحمل الذلّ والتُّهَمِ
التهكّم	فبالتهكّم عِبتُ المبتغي شرفًا	قد عشت معتبرًا بشراك بالندمِ
التغاير	تغايروا في مديح الجاه وافتخروا	وكم رمى اهلَـهُ بالذلّ والنِّقَمِ
السهولة	فلا افتخار بغير الفضـل انَّ بهِ	سهولةً تجعل الشأن الوضيع سمي
الاهمال	اعمل صلاحًا وأهمل كل طالحةٍ	ودَعْ كلام عدوِّ الله كالعدَمِ
الكلام الجامع	جمعُ الكلام اذا لم يحتفـل ادبًا	لم يكتسب من جناهُ لذَّة الحكمِ
المُساواة	كلّم أخا دَعةٍ تَعُـدْ اخا ملكٍ	فيستوي منك قلبٌ غير منقسمِ
الاقتباس	ان شكَّكت عينُك اليمنى فأقلعها	وألقِهـا تقتبسْ نورًا وانت عمِ
التوجيه	فمن توجّه نحو الله منتصبًا	بكثرة القلب يبنيه كما العلمِ
المزاوجة	اذا تزاوج ذنبي واعترفتُ لهُ	نفى عذابي وكافاني على الندم
الرجوع	وما رجعتْ الى نفسي أونبها	نعَمْ رجعتُ ولكن عند مُنهزَمي
معاتبة المرء نفسه	يا نفسِ أصغي لعتبي واقبليه كفى	كم تازميني بفعل غيرْ محتشمِ
التسليم	فهل يبرّرني تسليم خدعتكِ	فلا لعمرى ولو عدتُ الى العدَمِ
القسم	لا كنت حيًّا ولا بُلغت نيل منًى	ان كنت اصغي لدعواكِ وذا قسمي

حسن التخلُّص	حتى اَستَبِنَّ على حسن التخلُّص من	ما قد جنيتُ بمدحِي معدن الكرم.
المجاز	يسوعُ بكر الاله ابن البتول نجا	ز الانبياء وربٌّ في اطّرادهم.
العكس	نورُ الوجودِ وُجودُ النورِ منهُ بدا	في الكون يا عكس شبٍ من سناهُ عَمي
حصر الجزئي بالكل	فردٌ به كلُّ اجزاء الورى انحصرت	وذاتهُ علّة الاكوان من عدم.
التفسير	طبعٌ تثلَّث والتفسير جاء ابٌ	وابنٌ وروحٌ الهٌ غير منقسم.
المماثلة	فالآب اولدهُ والروح أيدهُ	والخَلقُ تعبدهُ مماثلي الخدَم.
المذهب الكلالي	ومذهبي في كلامي عن تجسُّدهِ	لو لم يكن ما تخلَّصنا من النقم
التشريع	لمَّا بدا لاح تشريعُ الخلاص	لنا حزنا الفدا وهدانا اوضح اللَّقَم.
تشبيه شيئين بشيئين	شيئان قد اشبها شيئين حين بدا	وجودهُ في الدُنى كالنور في الظلم.
المناسبة	ناسوتهُ طاهرٌ والبرّ ناسبهُ	لاهوتهُ ظاهرٌ والسرّ كالعلم.
التتميم	وافى لينقذ حوَّا من خطيتها	وتمَّم الفضل إذ اوفى عن الامم.
التوليد	قد ردَّ مجدِ ابيهِ في ولادتهِ	وقد رضي الله بعد الغيظ والندم.
الترديد	فهو الجليل وفي ارض الجليل بدا	جليلُ ترديدهِ في غاية الحكم.
التشطير	تعليمهُ عذبٌ ما شانهُ كذبٌ	يُنبيك عن حكمٍ تشطيرُ محتكم.
الاشارة	ومن اشارتهِ في وعظهِ رجعت	جمع الخلائق عمَّا في نفوسهم.
الايغال	قد أوغل السيرَ بالتبشير مجتهدًا	على هدى شعبه بل سائر الامم.
ائتلاف الوزن والمعنى	تؤْلف الوزنَ والمعنى بشارتهُ	لأنَّها قد أتت في غاية الحكم.
التوشيع	توشيع آياتهِ مذ أُعلنت فضحت	ضلالة الملحدين ابليسَ والصنم.
التقسيم	تقسيمهُ معجزات في ذرى عالٍ	كالبرص والصمّ والعميان والبكم.
الايجاز	ايجاز اوصافِ ما أبدت يداهُ يرى	في الارض والبحر والافلاك والنسم.
التوارد	توارد الجود فاضت من يديهِ ولم	تكفَّ حتى الدما اجرتهُ كالديم.
البسط	وقد تعوَّد بسط الكفّ مبتهجًا	حتى على العود اعطاها بلا ندم.
الجمع مع التقسيم	جمعٌ تقسَّم في آلامهِ قسمًا	فالنفس في نعم والجسمُ في ألم.
التشبيه	وجسمهُ من نحول كالخلال غدا	وقد تشبَّه نور الوجه بالظلم.
تجاهل المعارف	حتى تجاهل فيهِ الناسُ معرفةً	قالوا بهِ سقمٌ ام بالنبال رُمي
التورية	وقد توارى جمال الوجه مستترًا	لمَّا عراهُ الحيا في ضيقة الرجم.

المساواة	في موتهِ قد تساوى بالانام وفي	نهوضهِ اشتهر اللاهوت كالامم.
التوهيم	جلَت قيامتهُ بالانتصار وقد	غرَّت قلوباً من التوهيم في غمم.
سلامة الاختراع	صعودهُ اخترع النهج القويم لنا	كي نرتقي منهُ بجنح البرّ والنعم.
الاضراب	رقى على السحب بل فوق الكوكب بل	فوق السماء باضراب عن الاكم.
الانسجام	وارسل الروح من تلقاهُ منسجماً	على تلاميذهِ كالالسن الضُرُم.
التسهيم	وقال سيروا انا معكم بلا جزعٍ	تسهموا الارض وادعوا سائر الامم.
العقد	فمن تركتم خطاياهُ لهُ تُركت	ومن عقدتم عليهِ الحرمَ ينحرم.
الارداف	فاردفوا كل مأوى الحب وانعطفوا	نحو الذي مات حبًا في خلاصهم.
التمكين	تمكّنوا من وصاياهُ وقد طفقوا	يسعون بين الذئاب الطُلْس كالغنم.
التوزيع	توزّعوا منزعين العجز وانتزعوا	باعلزبوبَ وعدواهُ بعزمهم.
الاستتباع	الباذلو الحبّ بذل النفس يوم وغى	مستتبعين الهدى بالحفظ للذمم.
الايداع	من أودعوا الحبَّ قد لذّت نفوسهم	فيها النفوس تراهُ غاية الالم.
التصحيح	دماهمُ روت البيداء مذ نزعوا	رواية الكفر في تصحيح قولهم.
الاشتراك	عطر السماء بدمع والدما اشتركا	سما الربا لا سما الاجرام والديم.
التصريع	كم صرعوا حاسديهم في ردائهم	كم ابردوا قاصديهم في صلاتهم.
جمع المؤتلف والمختلف	فالفضل مؤتلفٌ فيهم ومختلفٌ	لانّ بطرس يسمو فوق كلهم.
الايضاح	قد قام فيهم إمام فاق اخوتهُ	فهو الصفا موضح الإشكال للامم.
التنكيت	ايمان بطرس نور الحقِ مقتدي	نكّت على من عمى بل عن سناهُ عمي
حسن الاتباع	من يخسر العمر والدنيا بهم ربح	م الدارين في حبّه حسن اتباعهم
العطف	او يعطف القلب يوماً نحو حبّهم	او يعطفون به في حسنِ دينهم.
ائتلاف اللفظ والمعنى	تؤلف اللفظَ والمعنى رسالتهم	تألَفَ الوعظ بالآيات والحكم.
الترصيع	كم رصّعوا حكماً من درّ وعظهم	كم فرّعوا نعماً من برّ لفظهم.
ائتلاف اللفظ باللفظ	فاللفظ كالدرّ والعقيان مؤتلف	باللفظ فيهم كمنثورٍ ومنتظم.
التسميط	سمّط عقودهمُ وارفع بنودهمُ	واخمد حسودهم بالذل والغمم.
التفريع	فما الملائك في برّ وفي نقةٍ	يوماً بأطهر من تفريع برهم.
الاتساع	أطهر النفوس اتساع الرأي خصّ بهم	بيض القلوب حسان الخلق والشيم.

الكناية	نُحل الجسوم ومقروحو الجفون وهي	تُكنّي عن النسك والاسهار والندم
التنسيق	تنسيق مجدهم تنميق مدحهم	توفيق سعدهم ينبي عن العظم
الفرائد	تلقى الهياكل في اعيادهم عقدت	فرائد الدرّ من الحان مدحهم
ائتلاف اللفظ والوزن	تأْلفُ الوزن بالالفاظ جانسهُ	حسن النشائد بالالحان والنغم
السجع	سجعي بمدحهم قد صار من قسمي	اذ فيهِ مغتنمٌ في موقف الحكم
التجزئة	جزّيت من كلمي ردّيت من قلمي	ابديتُ من حكمي اهديت كل عم
المدح بعرض الذم	مدحي بعرض ذمّ قد يخصّ بهم	لا عيب فيهم سوى إكرام ربهم
التكميل	من قد اعدَّ لهم ملكًا واكمله	مذ خصّهم ان يدينوا سائر الامم
الاشتقاق	مخلّص رام تخليص العباد وقد	وافى وخلّصهم بعد اشتقاقهم
الابداع	قد ابدع العدل في شرعٍ سما فنما	واينع الفضل فرعًا في حماهُ حمي
العنوان	وفُلكُ نوحٍ اتت عنوان بيعتهِ	فمن يَلِجها نجا من لجّة العدم
الترشيح	كم هدَّ ركن ضلالٍ حين أسّسها	وكم ترشّح منها الخير كالديم
التلميح	تلميح انوارها امست مشعشعةً	ضاهت اورشليمُ العلياءَ في الظلم
الترتيب	وحيدة جمعت قدْ الرسالة في	ترتيب انوارها للعرب والعجم
التجريد	لي منها ماء ينابيع الحياة بهِ	يُطفى أُوامي بتجريد من النقم
الطاعة والعصيان	اهل الهدى قد اطاعوا شرع بيعتهِ	وقد عصاهُ العدى من فرط كفرهم
التعريض	ما رام بالسيف يحمي حقّ مذهبهِ	ولا تعرّض للالزام والرغم
الجمع	وداعةٌ واتضاع مع تقى ونقى	قد جمّعتهم سجاياهُ مع الكرم
التعديد	تعديد اوصافهم للربّ يعلنهُ	مولًى عظيمًا الهًا بارئ النسم
الطيّ والنشر	طيٌّ ونشر وتقريبٌ بهِ وجفا	للغدر والودّ والافضال والاثم
التعليل	لو لم يُقم أُمّهُ ملجًا لأُمتهِ	ألّا تعأّل انقاذي من النقم
المجاز	بها مجازي الى باب النعيم وهي	باب السماء وبيت الحقّ والحكم
المبالغة	وهي النجاة لكل المؤمنين وقل	كل الانام وان بالغتَ لم تُلَم
الاغراق	فلو ترى توبة الشيطان ممكنةً	لأَغرقتهُ بتيّارٍ من النعم
الغلوّ	كادت تردُّ زمانًا فيهِ قد سقطت	كل الانام لكي تعلو بجنسهم
التفريق	قالوا هي العرش والتفريق بينهما	للعرش موطا وهي ترقاهُ بالقدم

التهذيب والتأديب	تأديب سيرتها الحسناء يخبرنا	عن حسن تهذيبها للطبع والشيمِ
التوشيح	فان توشّحت الاكرامَ لا عجبٌ	لانها عينُ تمِّ الجود والكرمِ
الاتفاق	من كان نسبتهُ نعتًا لأمّتهِ	فتلك انصارهُ حسب اتفاقهمِ
التطريز	شغلي بتطريز مدحي فيهِ مغتنمي	يا خير مغتنمٍ يا خير مغتنمِ
الجمع مع التقسيم	يداهُ كالبحر في تفريق ما جمعت	وفيضهُ البحر كم روى فؤادًا ظمي
الايضاح	يعطي بشحٍّ وسحٍّ ثم يوضحهُ	شحٍّ لمستغنمٍ سحٍّ لذي كرمِ
ائتلاف المعنى بالمعنى	حلٍّ وغلٍّ لهُ للمعنيين غدا	تألفٌ نحو مأسورٍ ومحتكمِ
النفي والايجاب	لا ينتفي منهُ ايجادُ الجميل ولا	يعطي بشحٍّ ومَن يقصده يغتنمِ
التكرير	كرّر وسلْ شيم المستحسن الشيمِ	المستحسن الشيمِ المستحسن الشيمِ
التوفيف	وابكِ ونُح وانتحب فارضخ وجُدْ فأنِلْ	فوّف وسرْ وابتهج واطلب وصل ودُمِ
المحاجاة	واصغَ لقولي اذا حاجيتُ ملتفتًا	من جاز بحرًا فهل يحصيهِ بالقدمِ
اللغز	واعط ليومك ما يحتاج من اسف	واطرح لما فيهِ تُكفَ حلَّ لغزهمِ
الايهام	من شام تلويح إيهام وجدٍ على	تحصيلهِ وجد السلوان في العممِ
حسن البيان	لقد تبيّن لي حسن البيان وقد	تظاهر الحقُّ والبرهان كالعلمِ
مراعاة النظير	من شام طرفي بروقًا من سناه اضت	راعي النظير بدمع فاض كالديمِ
التدبيج	وابيضٌ أسودُ حظّي حين دبّجٍ في	صفر الخدود ومجاري مدمعي العنمِ
التفضيل	لذاك قد جئتُ يا مولاي معترفًا	بما تفضّل من ذلي ومحتكمي
الاعتراض	فلو سمحتَ بعفي لستُ معترضًا	حزتُ النجاة وكم سامحت للندمِ
الاحتراس	سلبتَ نعماك عدلًا من ذوي كسل	وزدت محترسًا فضلًا على النعمِ
المشاكلة	تُشاكل الخير خيرًا والمسيءَ اسى	والشرّ شرًّا وذا الاحسان بالكرمِ
الاندماج	فاعضد بنيك ولو ابقيت مندمجًا	بذلّتي غير جودك قط لم ارُمِ
السلب والايجاب	سلبتَ كل رجاء في الانام وقد	اوجبت فيك الرجا يا عين مغتنمِ
الاستثناء	غادرتَ رادًا وما استثنيت من احدٍ	الّاكَ يا منقذي في يوم محتكمي
المعمّى	فاحنُ عمى القلب يخطى قبل غايتهِ	بعاطف منك لولا نورهُ لعمي
الاستشهاد	انا الطبيبُ المرجي عفو ذنبيَ	م ابراهيم مستشهدًا دمعي على الندمِ
التاريخ	ارجوك بعد مديحي والتخلص من	تاريخهِ ان تنجيني من الضرمِ

براعة الطلب | براعتي اظهرتها في من طلب فلا احتياجَ الى التعريج بالكلم
الختام | من قبل بِرّ حسابي يوم محتكمي ارجو الخلاص وأُعطَى حسن مختتمي

ترجمة قديمة

لسيرة القديس افتيميوس

للاب بولس پيترس اليسوعي من جمعيّة الاباء البولنديين

انَّ القرن الخامس يُعدّ من اشرف وامجد قرون التاريخ الكنسيّ اذ فيه ظهرت الكنيسة بكل قوّتها وجلالها فاتّسعت دائرة اعمالها في الآفاق وتوفّرت مشروعاتها الدينيَّة والاجتماعيَّة ومساعيها الخيريَّة والادبيَّة. وفي ذلك العصر شرّفها الله بعدد لا يحصى من كبار الرجال ومشاهير الاحبار الذين لا يزال ذكرهم حيًا في كل انحاء المعمور. ولما برزت من مكامنها اضاليل المبتدعين اقام الله من ائمَّة العلم والفضل رجالًا يعدّهم الشرق والغرب معًا مصابيح لامعة وانوارًا ساطعة كشفوا بتآليفهم سُحُب الضلال وأسّسوا الحقّ على دعائم متينة باقية الى يومنا هذا في ثباتها وقوّتها رغمًا عن حَملات المعادين وغارات المناوين. وكان لسيّاح البراريّ في هذه الاعمال المبرورة قسمٌ صالح فشيّدوا الاديرة وقدّسوا الارواح وعلّموا الوفا من البشر ان يصرفوا همّهم عن العالم الزائل ويوجّهوا بها الى عالم البقاء. وكانوا مع ذلك يشتغلون بالحراثة والزراعة وضروب الصنائع والحرف فكادوا يقاسون الفقر المدقع والضيق المفرط. وكان السَّبق في نهج الطريقة الرهبانيّة لنسّاك الصعيد يتقدّمهم كوكب البريَّة انطونيوس الكبير

على انّ مثاله اثار بعد قليل في قلوب كثيرين من اهل زمانه روح الحميَّة وغيرة القدوة الصالحة في جهات الشرق كالشام والعراق وما بين النهرين فاشتهر بين اولئك الجهابذة قوم من ارباب البرّ أسفرت عن فضلهم المخطوطات العديدة التي استخرجها العلماء من زوايا النسيان في عهدنا هذا. وممّن اشتهر اسمهُ وتنقّل في فلسطين في الاودية والصحاري المجاورة للقدس الشريف قدّيس عظيم طالما نوّه بصفاته الكريمة واعماله الجليلة قدماء الكتبة لكنّ اسمهُ بتمادي الأيام كاد يمحي من ذهن اهل زماننا الذين يقصرون

نظرهم على الامور الحاضرة ويسهون عن خلفة ثمينة ابقاها لهم اجدادهم. ومرادنا بهذا العلَم الجليل القديس افتيميوس الذي شرَّف بلاد فلسطين بما انشأ فيها من المنشآت الخطيرة والمآثر العمرانيَّة التي من شأنها ان تكسبهُ ذكرًا مخلَّدًا في وطنهِ

ونحن نقدّم لحضرة الاب ف. ريمند جانيَه من الرهبان الدومنكيين في القدس الشريف فرائض الشكر لسعيهِ بإحياء معالم ذلك الرجل العظيم في الترجمة التي كتبها آخرًا (١ فأودعها من الاوصاف اجلَّها ومن الفوائد اصدقها فبيّن احوال الرهبانيَّة والكنيسة في فلسطين في تلك الاحقاب السالفة حيث نشأت بفضلهما الاحياء العامرة التي لولا الغزوات والحروب لكانت جملت تلك الانحاء كجنَّات عدنٍ حافلة بالسكَّان مزهرة بالعمران

امَّا الموادّ التي اخذ عنها حضرة الاب معلوماتهِ فهي من اوثق واصحّ ما بلغنا من التآليف القديمة ولعلَّ اعظمها شأنًا تاريخ وضعهُ لاعمال القديس افتيميوس كاتب بليغ ومؤرخ مدقق عاش بين رهبان القديس افتيميوس الذين عرفوهُ حق المعرفة وهو كيرلُس من سيتوبوليس اي بَيْسان فجمع من افواه الرهبان وشهود العيان ما شاهدوهُ من اعمال رجل الله فدوَّنها بكتاب احسن فيه ما شاء. وقد روى ما روى بقريحة وقَّادة وبصيرة نقادة حتى اصبح تأليفهُ مرجعًا لكل المؤرخين الذين أتوا بعدهُ.

على انَّ تاريخهُ لترجمة القديس افتيميوس كانت اخذتها يدُ الضياع وبقيت مدَّة طويلة متروية في دفائن الخزائن. وانَّما عُرف منها فقط نسخةٌ كان في القرن العاشر تصرَّف بها الكاتب اليوناني متفراست فزاد فيها ونقَّص وصحَّف وشوَّه حتى اذهب معظم رونقها وصدق لهجتها ثم وقف في الازمنة المتأخرة اصحاب النظر والتفتيش على نُسخ صادقة لم تمسَّها يد متفراست فطُبعت وكان لطبعها تأثير في معرفة اليقين من اخبار رهبان فلسطين

وقد حصلت مكتبة كليَّة الاباء اليسوعيين آخرًا على نسخة عربيَّة من سيرة القديس افتيميوس ففحصناها فاذا هي تعريب الترجمة اليونانيَّة لكيرلس السيتوبولي توافقها الموافقة التامَّة ولم يدخلها شيء من تمويهات متفراست ومن هذا القبيل هي جديرة بالذكر

(١ هذا اسم الكتاب:
Vie de S[t] Euthyme le Grand (377-473). *Les moines et l'Eglise au V[e] Siècle*, par le R. P. FR. RAYMOND GÉNIER O. P., Paris, J. Gabalda, 1909. pp. 450.

فاردنا ان نعرضها على قرّاء المشرق ونقتطف منها نبذةً رائقة تحتوي على اخبار بعض عرب البادية وتنصُّرهم في الجاهليَّة

ولهذا الاثر مزيَّة اخرى تزيدهُ قدرًا اعني قدمهُ فانَّهُ من اقدم مآثر نصارى العرب في اللغة العربيَّة . نعم انَّ المخطوط الذي نتكلَّم عنهُ لا يترقَّى عهدهُ فوق المئتي سنة الَّا انَّ هذه النسخة منقولة عن نسخة قديمة جدًّا كما يظهر من نسخة اخرى كُتبت على رقٍ دثرت كتابتهُ الاولى (palimpsestc) كان وجدهُ العلّامة تيشندرف في ديرمار سابا قريبًا من القدس الشريف فوصفهُ الاستاذ فليشر في المجلَّة الاسيويَّة الالمانيَّة (ZDMG, I. 148—160) وهذا الرقّ نُقل الى خزانة كتب بطرسبورج الشرقيَّة ومنهُ اخذ حضرة الاب جرج غراف (G. Graff) ترجمة القديس أبراميوس التي رواها المشرق (٨: ٢٥٨—٢٦٥) واستوقفت انظار العلماء . وكاتب ذلك الرقّ الراهب داود . وهو يُشبه كل الشبه من حيث صورتهِ وكتابتهِ وقدمهِ رقًّا آخر من جنسهِ وُجد في الدير نفسهِ كُتب سنة ٨٨٥ — ٨٨٦ برسم الراهب اسحاق من دير سينا وكاتبهُ الانبا انطون البغدادي الذي عُرف باسمٍ آخر وهو داود بن سينا راهب دير مار سابا (١ فوحدة الاسم وشبه الخط مع بقيَّة الآثار لا تبقي شبهة في انَّ الترجمة العربيَّة هذه تُرقَّى على الاقلّ الى اواخر القرن التاسع

ولعلَّها اقدم من ذلك لانَّ في آخر النسخة المدونة في بطرسبرج يقال انَّ « كاتبها هو الخاطي المسكين ذاويذ» (ZDM G.I., 151) فقولهُ « كاتبها » يدلُّ على انَّ ذاويذ اي داود المذكور ليس هو المعرِّب وانَّما هو ناسخ الكتاب . ويؤيد الامر ما وقع في النسخة من الاغلاط فانَّ بعضها انسب للكاتب منها للمعرِّب (٢ . مع هذا لا يمكنَّا ان نعرف صاحب الترجمة ولا زمانها

واذا قابلنا ما نقلهُ الاستاذ فليشر عن رقّ تيشندرف تحقَّقنا ان النسخة الحديثة التي دخلت في مكتبة كليَّة القديس يوسف تتضمَّن الترجمة التي وصفها العلّامة المذكور

---

١) اطلب لبيان ذلك ZDMG, VIII, 584 ; cfr. Ign. Kratchkovski, *Arabica*, VIZANTIJSKIJ VREMENNIK, VIII., 1907, p. 2 du tirage à part

٢) راجع في المشرق ترجمة القديس ابراميوس التي رُويت مع اغلاطها وهي تشهد على قولنا

بحرفها (١ . ولا باس ان تكون هذه قريبة العهد وتلك قديمة لأنَّ كثيرًا ما نُقلت النصوص القديمة في مخطوطات حديثة وربما ضاع القديم وبقي الحديث (٢

على اننا في معارضتنا لهذه النسخة الحديثة بمنقولات فلَيْشر في المجلّة الاسيويَّة وجدنا فرقًا واحدًا وهو في عدد الفصول او الرؤوس الذي يبلغ في رقّ بطرسبورج ٥٣ راسًا وهو في نسخة بيروت ٥٢ راسًا وليس الباب الناقص احد الابواب الاخيرة لأنَّ آخر الراس ٤٧ واوَّل الراس ٤٨ اللذين رسم فلَيْشر صورتهما في المجلّة الاسيويَّة يوافقان في نسختنا للعددين ٤٦ و ٤٧ . والظاهر انَّ صاحب ترجمتنا لم ينقل في تعريبهِ مقدّمة المؤلف بخلاف نسخة بطرسبورج التي روتها وهي عبارة عن تقدمة الكتاب من كيرلّس السيتوبوليّ الى جاورجيوس الهيغومين اي الرئيس (ZDM G. I,158—159. fac-simile, p. 216) فنقص بذلك رأس من نسختنا التي تبتدئ بذكر تجسُّد ابن الله وتقديسهِ للنفوس هكذا: « الابن الوحيد وكلمة الله الآب قبل كل الدهور الخ » . وقولنا هذا حدسٌ فقط لأنَّ نسخة بطرسبورج قد تلفت منها اوراقها الاولى وهي تبتدئ بالراس ٢٧ (٣

وعلى كل حال لا يؤثر هذا النقص في جوهر نسختنا البيروتيَّة لأننا لم نجد فرقًا البتَّة بين المقاطيع التي رواها فليشر وما يُروى في نسختنا المذكورة . ودلالةً على ذلكَ ها نحن نثبت هنا عن مخطوطنا البيروتي قطعةً نقلها الدكتور فليشر الى الالمانيَّة واثبتها في مقالتهِ دون رواية الاصل العربي . وهذه القطعة تتضمَّن رواية كيرلّس لما حدث لهُ في تصنيفهِ ترجمة القديس افتيميوس فيخبر انهُ كان جمع كل موادّها واحضر كل معلوماتها لكنَّهُ بقي سنتين وهو لا يعلم كيف ينظّم اجزاءها ويؤلف اقسامها ويلحم معانيها حتى تراءى لهُ في الحلم القديسان افتيميوس وسابا فافرج افتيميوس كربتهُ وانار عقلهُ بطريقة

١) وهذا الكتاب يحتوي تراجم اخرى ايضًا منها قصَّة القديس ديونيسيوس الاريوباغي التي نقلناها في المشرق هذه السنة (ص ١١٨–١٢٧)

٢) وفي نسختنا البيروتية بعض اغلاط عرضية لا اثر لها في نسخة بطرسبرج كابدال الدال من الذال والتاء من الثاء وغير ذلك مما ليس تحتهُ كبير امرٍ

٣) اطلب ما نقلهُ كوتليار عن ألّاطيوس cf. Allatius, cité par Cotelier. *Migne*, PP. GG. CXIV, col. 195-196)

عجيبة اعدَّها الكاتب معجزة باهرة ورآها غيره حلماً بسيطاً. ومما لا يختلف فيه اثنان انَّ كيرلُس هذا يُعدُّ من ابرع كتبة تاريخ النسَّاك واصدقهم لهجةً. وها نحن نروي كلامهُ بحرفهِ الواحد مع اغلاطهِ بياناً للهجة نصارى القرن التاسع بالعربيَّة. وهذه الرواية وردت في الراس ٥٢ من نسختنا في الصحيفة ٥٤ منها قال :

« (Fol. 54ʳ) وحيث كنت ابصر الشفا الذي ينبع من مقبرتهِ كنت اعجب في نفسي واقول أُترى كيف جاز تدبير الناسوت وكيف ارضا اللهَ بالحقيقة ابونا مار افتيميوس وكيف اتتا نعمة الله ومن اجل ذلك جتني (جاءتني) حرارة وشهوة ان اعرف عجازه (Fol. 54ᵛ) وتدبيره لكيما اكتب عنهُ وكنت اسأل بحرص في جميع هذه البريَّة للأبهات القديسين القدماء الذين كانوا في زمانهِ وفي زمان مار سابا ومعهم كانوا يتدبروا والامور التي كانت بلغتني عنهما حفظتها بحرص ليس العجائب والشِفاء الذي كان على يد مار افتيميوس فقط ولكن سيرتهُ وتدبير مار سابا كنت اكتبهُ في قراطيس واخلطتهُ لاني كنت احسن اصلح ذلك واصنعهُ كما ينبغي. ومن بعد زمان قليل كانت السنودس الخامسة في القسطنطينيَّة فنظروا في امر نسطور واوريجانس فحرموا من السينودس وكان رهبان كثير يسكنوا في السيق (١ الجديد وكلهم كانوا قد لزموا امانة اوريجانس وكانوا حرصاء على ذلك وابتعدوا من الامانة الجامعة المقدَّسة وطردوهم من السيق الجديد وسكنوا فيهِ ابهات القديسين من سيق مار سابا ومن الديارات المقدسة

« فامَّا انا بمشورة ابنا يني الاسقف خرجت من (Fol. 55ʳ) الكنوبيون (٢ وسكنت في السيق الجديد وكان معي القراطيس التي كتبت فيها قصص مار افتيميوس ومار سابا (ولبثت) في السيق سنتين جالس في السكوت وبحرص كنت اقرا في القراطيس ولم اكن احسن ان أضمها كما ينبغي ولا اسوّي بدؤها لاني كنت قليل المعرفة لاني لم اتعلّم الحكمة بكلام الله وكنت غبي في لساني ولكن الاه العجائب الذي هيأ الالسنة في مواضعها وصنع الوعر سهل وهو يصلح ألسنة الخرس صنع فيَّ انا الضعيف عجب على يدي مار افتيميوس ومار سابا القديسين لانهُ لم تكون لي كلمة ولا معرفة ان اصلح ذلك تفكرت ان اترك القراطيس وكنت اصلّي واطلب بحرارة قلب من اجل ذلك

« وفي بعض الايام وانا جالس على مجلسي ومالك القراطيس في يدي نمست ونمتُ وكان ساعتين من النهار أُري لي مار افتيميوس القديس ومار سابا وكان لباسهما لباس الكهنة فسمعت (Fol. 55ᵛ) مار سابا يقول لمار افتيميوس هوذا كيرلس ماسك القراطيس بيده ولهُ حرص وحرارة قلب كثير قد حرص وتعب ان يضع بدؤ (بدءًا) لقصَّتنا فلم يستطيع. حينئذٍ قال مار افتيميوس القوي: كيف يستطيع يكتب من اجلنا ولم ياخذ نعمة النبوة بانفتاح (بانفتاح) فمهِ. فقال مار سابا القديس: فاعطِهِ انت النعمة. فانعم لي ماري افتيميوس بذلك واخرج من كمهِ مكحلة من فضَّة ومروَد فوضع المروَد في المكحلة ثلاث مرات وكان يشبه ذلك للزيت وكان طعمهُ احلا

١) السيق لفظة يونانيَّة (σηκός) معناها الحظيرة والمحلَّة والدير

٢) الكنوبيون من اليونانيَّة (κοινόβιον) معناها الدير الجامع للرهبان

من العمل بالحقيقة انما كان في معرفة بكلام الله كما قال النبي: كلامك احلا بحنكي وافضل من العسل للفم

«... حينئذٍ حسنتُ بالحلاوة على في وعلى شفتي وأُعطيت النعمة وبديت ان اكتب بديًا قصة مار افتيميوس القوي وكانت النعمة تأمرني ولا اغفل على ذلك. فلمَّا فرغت من كتابتها كتبت ايضًا سيرة وتدبير مار سابا في مصحف اخر وانا اطلب (Fol. 56ʳ) اليهم بالنعمة التي اخذوا ان يطلبوا الى الله من اجلي. وانا الكاتب الشقي الذي كتبت هذا الكتاب اطلب الى الله ان يغفر لي خطاياي اولًا وآخرًا لا ههنا ولا في الآخرة ولكن اجد الرحمة بين يدي مجلس المسيح الذي لهُ التسبحة الخ»

ومما رواهُ كيرلس السيتوبولي في ترجمة القديس افتيميوس تنصيره لاحدى قبائل العرب التي اتتهُ من العراق فعمّدها وعيّن لها في فلسطين ليس بعيدًا عن ديره مقامًا فسكنت في ذلك المكان زمنًا طويلًا وكان يدبّرها شيخها المتنصّر معها بصفة اسقف. ورواية الخبر في الرأس العاشر من حياة القديس ولسوء الطالع قد وقع هنا في نسختنا العربيّة بعض اوراق حرمتنا بدء الرواية فسدًّا للخلل نستعير الناقص من النصّ العربي من سيرة متفراست اذ ليس تحت يدنا غيرها (١

(قال) في نواحي سنة ٤٢٠ اسعر ملك الفرس ازدشير نار الاضطهاد على نصارى مملكته. وامر احد امراء العرب المقيمين على حدود بلاده والخاضعين لدولته بان يضبط المسيحيين الهاربين ويصدّهم عن المهاجرة الى اراضي الرومان. فرأى الامير جور السلطان وتراخى في الطاعة لامره فنعى البعض برئيس القبيلة حتى خاف على نفسه من بطش الملك وولّى هاربًا مع قومه الى جهة الرومان واستجار بوالي الشرق المسمَّى انكنت اناطولي فرحَّب هذا بالوافدين وجعل شيخهم اميرًا على قبيلة اخرى محالفة للرومان (٢.

---

١) تجد ما يُعرف من روايات حياة القديس افتيميوس في مجموع الاب ديلاهاي (H. Delehaye: *Bibliotheca hagiographica graeca*, ed. 2, nºˢ 647-650)

٢) راجع ما ورد في تاريخ هؤلاء العرب وتنصّرهم في مجموع اعمال الآباء لمين (P.P. GG., CXIV, p. 612-613) ثم في كتاب المنسنيور دوشان (Mgr. Duchesne: *Eglises séparées*, 2ᵉ ed. 1905, p. 342-345) وترجمة القديس افتيميوس للاب جينيه (R. Génier: *Vie de Sᵗ Ethyme*, p. 77-117) وللاب فاليه مقالة حسنة في هذا المعنى في اصداء الشرق (*Echos d'Orient*, XII, 1907, p. 343 et seq)

وقد زعم كيرلس السيتوپولي او مترأست الناقل عنهُ انَّ شيخ تلك القبيلة كان يونانيَّ الاصل (١ وهو يدعوهُ اسپاباط (Ἀσπέβετος) وهو غلط ظاهر لأنَّ هذا الاسم فارسيّ مركَّب من لفظتين «سپاه» اي عسكر و«باد» اي سَنَد فيكون معناهُ سند الجيش (٢

وكان لاسپاباط ولد اسمهُ طرابون أُصيب بفالج اعيا الاطبَّاء شفاوهُ فعذا جرى لهُ حلم كما ستري ممَّا ننقلهُ عن نسختنا واستدلَّ على القديس افتيميوس فوفد عليهِ مع والدهِ وقومهِ الى دير القديس ثاوقطسطس في وادي دبور حيث كان افتيميوس مقيماً . فكان لخبر قدوم هؤلاء العرب تأثير عظيم في قلوب السيَّاح وظنّوا انهم يريدون غزوهم . وهنا تتمَّة الخبر في نسختنا

العرب المتنصرون

(Fol. 8r) . . . . فلمَّا أبصروا الاخوة كثرة البربر فزعوا . فلم (فلما) علم مار ثاوقطسطس ان الاخوة قد فزعوا نزل فلقي البربر وقال لهم : ماذا تريدون . فقالوا : نريد افتيميوس عبد الله . فقال لهم : هو ساكن (ساكت) وليس يكلم انسان الى يوم السبت . حينئذ اخذه اسبيغ (اسپاباط) بيده واوراه (وأراه) الغلام اليابس الجنب وامر الغلام ان يخبره بقصته . فبدأ الصبي يبكي ويقول : انا في بلد فارس ضُربت بهذه الضربة وقد عالجوني الاطبَّا والسَّحرة ولم انتفع بشيء ولكن الوجع كان يزيد . فلمَّا جئت الى هذه البلاد فان فكرةً من الله طلعت على قلبي وفيما انا اتعذَّب في بعض الليالي تفكَّرت وقلت : يا طرابون اين فخرة هذا العالم واين حرص هذه الاطبا واين مجد المجوس وقوَّة علمائهم بالـذين يعبدون اعني الاصنام واصحاب الكواكب اين الذين يـدعون (8v) الشياطين ويثقوا بهم ؟ ما ارى في شي مما هم فيه منفعة ولكن الله وحدهُ هو الرحوم . وفيما انا اتفكر بهـذا قمت وبدموع كنت اطلب من الله واقول : يا الله القويّ الجبار الذي صنع السماء والارض وكلَّما فيهم ان انت ترحَّمت على وجعي وخلَّصتني من هذا المرض المرّ انا اصير نصراني وابتعد من كل الشرور واترك عبادة الاصنام

« فلمَّا قلت هذا نمت وابصرت راهب حسن الشيبة طويل اللحية فقال لي : تراك تتمّ

(١ (P. G., l. c., col. 612)

(٢ ما لم يشتقوهُ من لفظة « اسپا » اي فرس

لله ما وعدت به ؟ ان فعلت فالله يشفيك. فقلت له: كلما وعدت فانا افعله ان أُعتقتُ من هذا المرض والبلاء. حينئذٍ قال لي: انا افتيميوس الذي اسكن في البريّة شرقي بيت المقدس على عشرة اميال في وادي قبلي الطريق النازل الى ريحا (اريحا) وان كنت تريد ان تبرا فلا تغفل ان تاتي اليّ والله يشفيك على يدي

« فلما انتبهتُ اعلمت والدي بما رايت وسمعت فلذلك جئنا اليه بامانة فانا اطلب اليكم الّا تخفوا عني الطبيب الذي اعلمني به الله

« فلمّا سمع الفاضل مار تاوقطسطس ذلك طلع الى مار افتيميوس واخبرهُ بذلك فقال لهُ مار افتيميوس: ما ينبغي للانسان ان يقوم مقابل منظر الاهي. فنزل اليهم وصلى عليهم وعلى طرابون بحرص. فرسمهُ بالصليب من ساعته واقامهُ صحيح. فلمّا ابصر البربر كيف برئ من ساعتهِ عجبوا جدًّا وآمنوا بالمسيح وطرحوا انفسهم قدّامه على الارض وطلبوا اليهِ ان يعمّدهم وطرحوا انفسهم قدّامهُ على الارض ايضاً وسألوه بحُرقة قلب

« فلمّا ابصر افتيميوس صانع العجائب انهم من كل قلوبهم قد آمنوا بالمسيح امر ان يهيّأ في المغارة بركة للمعموديّة وهي حتى اليوم فيها يعتمدون. حينئذٍ علمهم الأمانة واعمدهم بسم الآب والابن والروح القدس وحول اسم اصبغ (؟) فدعاه بطرس ولهُ عُمِد اول ومن بعدهم عمد لطرابون ولبقيتهم واسكنهم عنده اربعين يوماً وبصّرهم بكلام الله واقنعهم ثم ارسلهم وليس هم من بني هاجر ولكن من بني سارة لانهم انعتقوا بالمعمودية. فاما ماريس خال طرابون (فانهُ) لم يفارق الدير ولكنهُ ترهّب وصبر فيه باقي حياته وارضا الله جدًّا وجميع ما لهُ دفعهُ في بنيان الدير »

ثم اردف كيرلس خبر تنصُّر خال طرابون وقومه بعد ان ذكر خروج افتيميوس من محبسه وتنقُّله في براري أُخرى حتى عاد الى دير رصيفه القديس تاوقطسطس فقال:

(Fol. 11v) « . . . فلمّا سمع بطرس خال طرابون الذي كان القديس نصّرهُ (١) ان مار افتيميوس قد جاء قدم اليه ومعهُ بربر كثير رجال ونساء وصبيان وكان يطلب ان يكلّمهم كلمة حياة حينئذٍ الشيخ القديس كلمهم واخذهم الى دير السفلي

١) وفي الاصل: نضرهُ.

واعمدهم واقام عندهم هناك سبعة ايام من بعدها اعمدهم ثم اطاعهم معهُ الى مكانهِ حينئذٍ بطرس جاب بنايين وصنع في الجنان جب كبير لهُ فمين وهو حتى الى الان عامر وبنا في لصقهِ خبازة وبنى للشيخ القديس تلاتة قلالي وفي وسط القلالي كنيسة وكانوا يطلبون (Fol. 12ʳ) اليهِ ان يتركهم قربه

«واما مار افتيميوس محبّ الخلوة فانهُ لم يحب ان يكونوا قربه لئلا يـجـسوهُ لانهُ كان يحبّ السكوت فاخذهم الى موضع وقال لهم: ان كنتم تحبّوا ان تكونوا قربي اسكنوا في هذا الموضع لتكونوا بين الديرين. فرسم لهم موضع يعملوهُ كنيسة ويكونوا في خيمهم حولها وهو بحرص يتقدهم حتى صنع لهم قسوس وشمامسة ورجعوا الذين كان اعمدهم بدياً (بدءا) وكانوا معهم وكتير كانوا ياتون اليه ويعمدهم فلما كتروا جداً صاروا محلّات كتيرة وحينئذٍ بعث ابونا القديس مار افتيميوس الى يونليوس بطريرك بيت القدس ان يصنع لهم اسقف فبعث اليه البطريرك يقول له: بفرح انا افعل كلما تحب. حينئذٍ بعث اليه بطرس خال طرابون لانهُ كان قوي ان يدبر الانفس بمخافة الله وهو اول اسقف كان بفلسطين على محلات البربر وكانوا جماعات كثيرة ياتون الى مار افتيميوس (Fol. 12ᵛ) فيعمدهم ويعلمهم كيف يعبدون الله ويعملون رضاه. فالى هاهنا فرغ قولنا من اجل البربر الذين آمنوا» انتهى

وقد عُرف الحيّ الذي افرزهُ القديس افتيميوس للعرب المتنصّرين باسم يوناني (παρεμβολαί) معناه المحلّة او المعسكر. وقد شيَّد لهم القديس كنيسة وبعض ابنية لا تزال آثارها قائمة الى يومنا وقد توفّق الى اكتشافها حضرة الاب فدرلين R. P. G.) (L. Féderlin رئيس مدرسة القديسة حنّة المعروفة بالصلاحيّة في القدس الشريف(١ وقد كان دليلهُ في بحثهِ عن تلك المحلّة تاريخ كيرلس السيتوبولي نفسه فانَّ الكاتب المدقّق كان عيَّن المكان بين دير القديس تاوقطسطس في وادي دابون وسيق القديس افتيميوس غربيًّا على ضفّة وادي المدوَّرة اليمنى عند بئر الزرعة: فقد وجد حضرة الاب فدرلين في ذلك الموقع صَرحًا اهليلجيَّ الشكل يقيس نحو ٨٠ متر ويحيط بارض مختلفة الهيئة

١) اطلب مجلّة الارض المقدّسة (La Terre Sainte, 1897, p. 178-181)

وبين الاخربة الباقية هناك يُرى صهريج مطويّ ثم اساس بناء كبير طولهُ نحو ٢٢ متر في عرض ١٥ مترًا . ولا يبعد انَّ ثمَّت كان مقام اولئك العرب الذين نصَّرهم القديس افتيميوس

وقد اشتهر اولئك المتنصّرون في الكنيسة ويعرف اربعة من اساقفتهم . وكان اوّلهم بطرس السابق ذكرهُ وهو الذي امضى اعمال المجمع الافسسي سنة ٤٣١ ولقَّب نفسهُ باسقف محلّة العرب . على انَّ هذه الاثمار الطيّبة لم تدم زمنًا طويلًا في بريّة فلسطين فانَّ عدوَّ الجنس البشري اثار على المتنصّرين من العرب قبائل أُخرى من المشركين فغزوا تلك المحلّة واخربوها كما ذكر كيرلس في تاريخهِ ايضًا حيث قال :

(Fol. 43) « وفي زمان اسطاسيوس الملك خربوا العرب بيوت البربر الذين كانوا تنصّروا على يدي مار افتيميوس فاما رؤساهم فصنعوا لهم بيوت جدد وبنوا كنيسة عند ارطيريوس وايضًا رجعوا اليهم العرب فسبوا بعضهم وبقيتهم تفرَّقوا في القرى وكان في ذلك الزمان في هذه البلاد شدَّة من البربر »

هذا ما رأينا نقلهُ عن النسخة التي نحن بصددها . وفي الختام نتمنَّى ان يعود التمدُّن ثانيةً الى تلك القبائل الشاردة فيحيا العمران وتنبعث الفضائل التي ازهرت مدَّةً في تلك البادية القاحلة والله السميع المجيب

الريّ في بلاد ما بين النهرين

لجناب المهندس ادوين افندي بشاره

في اواسط نيسان من السنة ١٩٠٥ نشر الاختصاصي الشهير السير وليم ولكوكس (Sir W. Willcocks) تأليفًا عاميًّا في اللغة الانكليزيّة يجث فيهِ عن الريّ في بلاد ما بين النهرين . وقد صدَّر الكتاب صاحبهُ بلائحة تاريخيّة واقتصاديّة بيَّن فيها باجلى بيان ما خصَّ بهِ الخالق تلك الانحاء من الثروة الزراعيّة والخصب الغريب وكان جناب الكاتب زار جانبًا كبيرًا من تلك السهول الواسعة في شتاء سنة ١٩٠٤—١٩٠٥ فتحقَّق عيانًا صحّة ما رواهُ عنها قدماء المورّخين . فكان لنشر هذا التاليف وقع حسن

لدى الذين يهتذون بترقي تركية لكنَّ صاحبهُ البارع لم يطبع منـهُ وقتئذٍ الّا نسخاً قليلة

فلمَّا أُعلن بالدستور في تموز السنة المنصرمة صرفت الدولة العليَّة بنظرها الى بلاد ما بين النهرين لتستثمر كنوزها الزراعية واقبل كثيرون على مطالعة كتاب السير ولكوكس لعلمهم بمقدرتهِ. لكنَّهم شكوا ندرتهُ. فذلك ما حدا بنا الى طلب الرخصة من مؤلف الكتاب لتجديد طبع تاليفهِ بعد نقلهِ الى اللغة الفرنسويَّة وهي اللغـة الغالبة بين أُدباء تركية على اختلاف اجناسهم. فاجاب السير ولكوكس الى دعوتنا بلطفهِ المالوف وبادرنا الى العمل حتى انتهينا منهُ منذ عهد قريب (١

ولعلمنا بارتياح القرَّاء الشرقيين الى معرفة احوال بلادهم احببنـا ان ندوّن لهم في صفحات قليلة لُباب هذا الكتاب الخطير

*

قرَّر السير ولكوكس انَّ مساحة بلاد ما بين النهرين التي يمكن سَقيها بالريّ تبلغ ١٣,٠٠٠,٠٠٠ فدَّان اعني ضعف المساحة التي تُروى بمياه النيل في مصر. وتلك جزيرة كما دعاها العرب معدَّل طولها ٧٠٠ كيلومتر في عرض يختلف بين ١٠ ك الى ١٠٠ ك يسقيها نهران فائضان دجلة والفرات مع كل ما يصبُّ فيهما من السواعد. وهي اشبه شيءٍ بثلَّث (Δ) مصر السُّفلى لها زاويتان شمالًا عند مدينتي هيت للفرات وبَلد لدجلة ينتهيان الى زاوية جنوبيَّة بصبهما بحر العجم. ويبلغ طول دجلة من بَلـد الى البحر ١٠٤٠ كيلومترًا على التقريب وطول الفرات من هيت الى مصبّهِ ٩٣٠ ك تقريبًا امَّا منحدر النهرين فهو كمنحدر النيل ١/١٣,٠٠٠. والنهران يجتمعان عند بلدة القرنة وتختلط من ثمَّ مياههما على طول ١٦٠ كيلومترًا وذلك ما يُعرف بشطّ العرب

وقد يتراوح عرض الفرات بين ٢٥٠ الى ٤٥٠ مترًا ويبلغ اعلى سطح مياههِ فوق الحضيض ثلاثة امتار ونصفًا. كما انَّ سرعتهُ تختلف ايضًا ومعدَّلها مترٌ واحد في الثانية وفي وقت فيضانهِ يرتفع سطح المياه ٥٠ سنتمترًا فوق ضفتيهِ. امَّا كميَّة مياههِ فيبلغ

---

١) وهذا عنوان الطبعة الجديدة: Sir Willcocks: IRRIGATION DE LA MESOPOTAMIE, traduit de l'anglais par *Edmond Béchara Ingénieur* E. L. L., Le Caire, 1909, p. 174.

معظمها في نيسان الى ٢٥٠٠ متر مكعَّب في الثانية ثم تنقص حتى تبلغ اقصى درجة نقصها في ايلول وتشرين الى ٣٠٠ متر مكعَّب فقط

والدجلة عرض يختلف في رحب ضفَّتيه وضيقهما على حسب النواحي التي يقطعها. ففي شمالي بغداد ربَّما اتسع عرضهُ الى ان يبلغ في بعض الامكنة اربعة كيلومترات. واذا انحدرت الى كاخ صالح وما بعدها وجدتهُ لا يزيد على خمسين مترًا. الَّا ان معدَّل عرضهِ يتراوح بين ٢٠٠ و٤٠٠ متر. ومعظم ارتفاع سطح مياههِ ستَّة امتار وسرعتهُ المعتدلة نحو متر واحد في الثانية. واذا حان وقت الفيضان علت المياه فوق ضفَّتيهِ الى ٢٥ سنتمترًا فقط وذلك قليل بنسبة فيضان النيل البالغ مترين ونصفًا. امَّا كمية مياه دجلة في الثانية فيبلغ معظمها في نيسان الى ٤٠٠٠ متر مكعَّب ثم تهبط في ايلول وتشرين الى ٢٥٠ مترًا ويفيض النهران معًا ويغيضان معًا

واعلم انَّ مياه دجلة والفرات مستوحلة يختلط بها من الموادّ الغريبة ما يفوق على النيل. واكثر ما يتزج بها املاح كربونات الكلس والمغنيسيا

واذا قسنا ريّ سهول ما بين النهرين على قياس الري المصري نال كل فدَّان ٢٤ مترًا مكعَّبًا في اليوم اي في ٢٤ ساعة

وعليهِ لمَّا كان مبلغ كمية مياه نهري الفرات ودجلة في آخر الصيف ٣٠٠ متر مكعَّب للفرات و ٢٥٠ لدجلة في الثانية كان مجموعهما ٥٥٠ مترًا مكعَّبًا في الثانية فينتج من ذلك انَّ المياه في ذلك الفصل لا يمكنها ان تسقي اكثر من ٢,٠٠٠,٠٠٠ فدَّان. امَّا في وقت الفيضان حيث يبلغ مجموع كميَّة مياه النهرين ٦٥٠٠ متر مكعَّب فيستطيعان ان يسقيا ٣١,٠٠٠,٠٠٠ ف تقريبًا

فينتج من هذا الحساب انَّ نهري الفرات ودجلة في ايام الصيف لا يكفيان لسقي الاراضي التي يمكن تخصيصها بالفلاحة اعني ١٣,٠٠٠,٠٠٠ فدَّان بل لا يمكنهما ان يسقيا ثلث هذه المساحة (٤,٣٠٠,٠٠٠) كما يجري في مصر في الشهرين اللذين تهبط فيهما المياه وتغيض. لكنَّ هذا الامر يمكن استدراكهُ باقامة خزانات يشيدونها قريبًا من النهرين كما هو اليوم جارٍ في مصر لانَّ مياه ما بين النهرين اذا جُمعت وخُزنت في احواض واسعة كفت لتقوم بحاجات زراعة تلك البلاد وريّها

وليس هذا الامر حدسًا وتخمينًا بل هو حقيقة راهنة تشهد عليها الشواهد التاريخيَّة

فانَّ اهل ما بين النهرين كانوا اقاموا تُرعاً وخزنوا المياه للري المتواصل فجعلوا بلادهم كجنَّة غنَّاء تزينها الخضرة والمزروعات كما روى المؤرخون منهم بلينيوس واميان مرقلان وابن سيرابيون وذكر الرواة قبلهم كهيرودوت وغيره انَّ الجزيرة كانت تغلُّ ٢٠٠ و ٣٠٠ بدل الواحد . والسير ولكوكس بسياحته الاخيرة في تلك البلاد قد تبيَّن الامر بما لقيهُ من آثار احواضهم وخزاناتهم المائيَّة حتى قال عنهم انَّهُ لم يبلغ احد مبلغ الكلدان في حسن ابنيتهم لجمع المياه وتوزيعها على انحاء بلادهم . ولو قصدت الحكومة اليوم تحسين الزراعة في تلك الجهات يكفيها أن تُصلح الاحواض القديمة ومجاري المياه في عهد الكلدان

ولتحقيق هذه الغاية وتقريب العمل بها قد اقتسم السير ولكوكس ما بين النهرين خمسة عشر قسماً ودرس كل قسم منفرداً مع ما يقتضيه من الاصلاحات والأدوات المائية فنها ما يحتاج الى ادوات ترفع المياه كالدواليب والمنجنونات ومنها ما يقضي بعمل خزانات واحواض في مكان الخزانات القديمة ويلزم بعضها حفر قنيّ او مجار بقناطل الى غير ذلك من الاشغال التي لو أُجريت باعتناء لأعادت لتلك البلاد رونقها في ايام البابليين

ومن الفصول المفيدة التي دوَّنها السير ولكوكس في كتابهِ الفصل التاسع بحث فيه عن الظواهر الجويَّة في انحاء ما بين النهرين . وممَّا قرَّرهُ انواع المزروعات التي يمكن استنباتها في زمن الصيف . وقد اثبت هناك انَّ معظم الحرارة في بغداد يبلغ الدرجة ٤٧ من المقياس المئوي وذلك في غاية آب . ثم يهبط الميزان حتى يبلغ منتهى هبوطهِ في كانون الثاني فيكون معدلهُ درجتين تحت الصفر . وهكذا يمكن تقسيم الزراعة في تلك الاصقاع على قسمين مختلفين موافقين لفصل شتوي وفصل صيفي

فالفصل الشتوي يمتد من تشرين الثاني الى نيسان لا يتجاوز معدل حرارتهِ ٢٣ ويكون هبوط المطر فيه نحو ١٧ يوماً وكميَّة مطرهِ ٢٠٣ ملمترات امَّا الفصل الصيفي فيبتدئ في ايار وينتهي بتشرين الاول فحرارتهُ فوق الدرجة ٢٥ من المقياس المئوي . اما زمن مطرهِ فيومان فقط وكميَّة مطرهِ تسعة ملمترات . فيكون مجموع ايام المطر سنوياً ١٩ يوماً وكميَّة مياهها ٣١٢ ملمتراً وذلك لا يكاد يكفي لسقي واحد في كل بلاد ما بين النهرين

ثم انتقل السير ولكوكس الى ذكر الحراثة في بلاد الجزيرة فاستند الى احد كبار

الزراعيين في عهدنا يُعدّ قولهُ حجّة من هـذا القبيل وهو المسير فوادن (Foaden) الذي دقّق النظر في الزراعة المصريّة. فبنى السير ولكوكس على قولهِ ما يأتي:

١ انّ سهول ما بين النهرين تصلح لزراعـة كلّ النباتات التي تزكو وتنمو في الجهات الواقعة ما تحت خطّ الاستواء.

٢ انهُ لممكن ان يُزرع القطن في تلك الاملاك في اوان الصيف. ولعلّ قصب السكّر نفسهُ ينمو ويخصب فيها

امّا القطن فان شروط التربة واحوال الجوّ تضمن النجاح لزراعتهِ. اذ يجد القطن في تلك الجهات حرارة كافية لنموّهِ مع ثبات الهواء على درجة ممتـدلة من الحرارة وعدم تقلّب الاحوال الجويّة بغتة

ولتربة تلك البلاد خواصّ جديرة بالزراعة فانها خفيفة يغلب عليهـا المركّبات الكلسيّة والجوّاريّة ويدخلها كثير من العناصر المخصبة كالازوت والحامض الفسفوري والبوطاسا على ما ظهر للكيمويين بعد تحليل امثلة عديدة من مركّبات التربة في جهات شتّى من بلاد ما بين النهرين. والكلس في انحاء الجزيرة متوفر ولا يمكن تحديد فعلهِ في زراعة القطن الّا انهُ من الاكيد انّ بعض الاقطار التي زاد كلس ارضها على كلس ما بين النهرين اخصبَ قطنها ولم يصبهُ ضرر بذلك. لا بل يرتأي بعض ارباب الزراعة انّ وجود الكلس في الاراضي يجعل تربتها اكثر تفتّتاً واسهل حراثة من سواها

امّا قصب السكر فانّ هواء بلاد ما بين النهرين موافق لاستنباتهِ الّا انّ المسير فندن يزعم انّ اراضي ما بين النهرين لا توافقهُ. على انّ زراعتهُ نامية في جهات بزباذ والتربة هناك غنيّة بموادّها الكلسيّة

وقد ختم السير ولكوكس تقريرهُ برصد النفقات اللازمة لتلك الاصلاحات. وقد بنى حسابهُ على ما صرفهُ المصريّون في مصر لريّ وادي النيـل مع مراعاة الاحوال في بلاد ما بين النهرين كزيادة اجرة العَمَلة ونقل السلع. وقد افضى بهِ الحساب الى نتائج اوضحها في كتابهِ بكل تفاصيلها عن ناحيتين من تلك الجهات ومفاد تلك الايضاحات انّ نفقات الاعمال لريّ بلاد ما بين النهرين كاقامة السدود وحفر القني وابتناء الاحواض وغير ذلك من الإعدادات تختلف بين ١٣ الى ١٦ جنيه في كل فدّان. وهذه الارقام مبنيّة على فرض انّ الاعمال تمتدّ الى كل مساحة الاراضي المنويّ ريّها واستفادة النصف

منها فقط . اما اذا عمَّ الريّ كل الجهات فانَّ تلك الكُلف والنفقات سوف تقل حتى لا تتجاوز كُلفة الفدَّان الواحد من تسعة الى احدى عشرة جنيه

وعلى رأي جناب المفتش انَّ سهول ما بين النهرين بامتداد الريّ اليها سوف تغل في السنة قيمة ثلاث جنيه بكل فدَّان بعد اداء كل النفقات ودفع الميري . بل يظنّ انَّ هذا الربح سوف يكون اعظم وانَّما قدَّره على نصف ما تغـلّ اراضي مصر التي يساوي الفدَّان منها ١٢٠ جنيه . ولسنا لنبالغ لو قلنا انَّ الفـدَّان في ما بين النهرين سيبلغ ثمنهُ ٥٠ جنيه

اما المصاريف السنويَّة التي تقتضيها تلك السدود والقني لاصلاحها وترميمها ونظارتها فانَّها تقدَّر بجنيه ٢٠١ لكل فدَّان وهي في مصر دون ذلك

ومَّا حسبهُ ايضاً بالتخمين السير ولكوكس ما تكلّف سهول بلاد ما بين النهرين لو ارادوا اصلاحها كلّها وتجهيز اقسامها للريّ والزراعة ثم الربح المأمول من تلك الاصلاحات

قال لو افترضنا انَّ الاعمال المنوي اجراؤها لاصلاح ١٣,٠٠٠,٠٠٠ فدَّان لا تفيد الَّا نصف هذه المساحة اعني ٦,٥٠٠,٠٠٠ فدَّان وان معدَّل الفدان يكلّف جنيه ١٤,٥ فيكون مجموع النفقات ٩٤,٢٥٠,٠٠٠ جنيه . امَّا الربح الخالص فاذا فرضناه ٣ جنيه في الفدَّان بلغ الربح السنوي ١٩,٥٠٠,٠٠٠ جنيه وان خصمت من هذا المبلغ تكاليف الاصلاحات السنويَّة والمصاريف المختلفة لترميم القنيّ وبقيَّة الابنية اعني ٢,٦٠٠,٠٠٠ بقي الربح الخالص ١٦,٩٠٠,٠٠٠ اي بالنسبة الى راس المال ١٧٪ وهو امري ربح بالغ من شانه ان يبعث الحميَّة والنشاط في قلوب الشركات المالية

اما الدول فانَّها تنال من هـذا العمل ارباحاً طائلة فمن ذلك كما قلنا الضرائب على تلك الاراضي وهي تبلغ ٦,٥٠٠,٠٠٠ جنيه ثم انَّ قسماً كبيراً من تلك السهول اعني ٦٠٪ هي ملك الدولة فيكون الربح لها وحدها فترى من ثم مـا يصيب من الجدوى والارباح من هذا العمل العظيم اذا ما خرج الى حيز الوجود فعلى ارباب الامر ان يساعدوا هذا المشروع غاية جهدهم بكل مـا امكنهم من الوسائط وذلك بان يدعوا الى معونتهم سكَّان تلك البلاد من اهل المدن والقرى والاكراد والقبائل فينشطوهم ويُكرموا شأنهم ويضمنوا لهم معاشهم سواء كان بالاجرة اليوميَّة التي يكسبونها او

بامتلاك قطعة من الارض يهتمّون بزرعها. وبهذه الواسطة يعود الامان لتلك النواحي المستولي عليها الخراب وتتوفّر ايراداتها

هذا ما استخلصناهُ من الفوائد من كتاب السير ولكوكس. وفيهِ غير ذلك من المعلومات ما يطول شرحهُ كافادات عديدة وتفاصيل عن تقود ما بين النهرين واقيستها واوزانها وعن تدبير ماليَّتها وعن ميزانية ولايتي بغداد والبصرة وضرائبها وشؤون اهاليها (وقد جمل عدد نفوس ولاية بغداد ٨٥٠,٠٠٠) وعن تجارة تلك الانحاء ومواشيها وغير ذلك ممَّا يجعل هذا الكتاب من اجلّ واخطر ما وضع في هذه الازمنة عن ذلك القطر الذي عرفت الدول القديمة عظم شانهِ فلم تزل تتنازعهُ وتطمح الى ملكهِ

(المشرق) ونحن في ختام هذه المقالة نشكر جناب المهندس ادمون افندي بشاره على نقلهِ هذا الكتاب الى الفرنسويَّة وعلى تلخيصهِ اجلّ مواضيعهِ لقرَّاء مجلّتنا متمنين لعملهِ رواجاً واقبالاً

نخبة

من امثال القس حنانيا منير

بقلم جامعها وشارح غريبها عيسى افندي اسكندر المعلوف اللبناني (تابع لما سبق)

تشابيه (تابع)

مثل القنديل بيحرق حاله وبيضوّي[1] على غيره = مثل الضيّع حمارة خالته ان وجدها بيغني وان ما شافها[2] بيغني = مثل الذي بيغني بالطاحون[3] = مثل الاطرش بالزفّة[4] = مثل السطل[5] بلا علاقة = مثل الخرج على الكلب = مثل الخنفسة في

---

١) يضوّي عند العامَّة بمعنى يُضي وهي تسهيل يضوّئ

٢) استعمال العامَّة لشاف بمعنى نظر كثير شائع

٣) والمعنى ان من يغني بالطاحون لا يمكن لاحد ان يسمعهُ لقرقعة حجارة الرحى

٤) الزفَّة عند العامَّة حفلة العرس وهي كثيرة الاستعمال عندهم والمعنى ان الاطرش لا يسمع شيئاً ممَّا يجري في حفلات العرس

٥) السطل فارسي معرَّب وهو اناء من نحاس لهُ علاقة كنصف دائرة مركبة في عروتين ملقتين على جانبي اعلاه. ويضرب هذا المثل لمن لا نفع يرجى منهُ ونحوه

المشاقة (١ =مثل اللعنة على الكافر = مثل الحدّاد بلا فحم = مثل الجيز بالقرعة (٢= مثل الدبور بالخابية (٣ = مثل الشوكة بالعين= ثلاثة اشياء تطوّل العمر الدار الوسيعة والفرس السريعة والامرأة الطيعـة = تحايد جهدك من الطقّ والنقّ والبق (٤ = كلّ كره واشرب كره ولا تعـاشر كره (٥ = اختر من الفجل الورق ومن اللحم المرق ومن التين العرق = مثل الذي يغنّي بالخابيـة = اهرب من الاقرع النحسي والاعور الجصي والاشقر الدبسي (٦ =قد يصعب على الزبيب الكمش والنار الحكش والعجوز اللكش (٧ = اضرب الطينة بالحيط ان ما لزقت بتأثر (٨ = مع السوق سوق = اذا كنت بين اثنين لا تبالي = اذا كنت بين العوران اعور عينك = ما دمت سدًّان الق ومتى صرت مطرقة اطرق (٩ = زمان الاوَّل تحوَّل = كل زمان وله دولة ورجال = كل وقت يعطي حكمه = الذي يمتاز النار يكمشها بايديه (١٠ = بعدما كانت ستّها صارت تطبّل في

١) الحنفسة دويبة منتنة والمشاقة من خيوط الحرير الغليظة والمعنى ان شيئاً قبيحاً يكون في شيء جميل

٢) الجيز عند العامَّة مبدلة من كلمة زيز لدويبة تصوّت في الشجر أُخذ اسمها من صوتها. والقرعة واحدة القرع ثمر انبات المعروف كانت تتخذ لوضع النبيذ وبعض السوائل قبل كثرة الاواني الزجاجية. والمعنى ان فلاناً حائر مثل الزيز الذي دخل القرعة ولا يجد لهُ منها مناصاً

٣) الدبُّور عند العامة اسم للزنبور وهو هامَّة معروفة اكبر من النحلة والزاقطة لونها احمر والخابية اناء كبير من فخار يتخذ لوضع النبيذ ونحوه من السوائل وهو بمعنى المثل السابق

٤) تحايد عند العامة بمعنى حِد. والطق صوت الوقوع. والنقّ صوت البكا ونحوه. والبقّ القرقعة في الماء ونحو ذلك

٥) الكره المشقّة وكل ما اكرهت نفسك عليهِ والمعنى كل واشرب ما تكره ولا تعاشر من تكره

٦) يريد التطيّر من هؤلاء الثلاثة

٧) تقول العامة كمّش اي قبض يده والكمشة مثل القبضة. وحكش النار عندهم اذا حرّكها لتزيد اشتعالاً وما يتخذ لذلك يسمّى المحكشون والمحكاش. ولكشهُ عندهم بمعنى ضربهُ بيدهِ او دفعهُ بذراعهِ ونحو ذلك

٨) ويروى عندنا اليوم اضرب الطينة بالحيط ان ما لزقت يلزق اثرها ولزّق بمعنى لصق كما لا يخفى

٩) ويروى لهدنا هكذا: ان كنت سدّانِ الق. وان كنت مطرقـة اضرب. والق بمعنى احتمل. والسدّان عند العامة تحريف سندان. وهو آلة ثابتة يُطرّق عليها الحديد فارسية الاصل

١٠) اي من يحتاج الشيء يحتمل مشقّة الحصول عليهِ

عرسها (١ = خيار الحاجه تعجب صاحبها = كل قطعة ولها لبّاس = كُلْ ما يعجبك والبس ما يعجب الناس (٢ = ما هو جيّد لك جيد لغيرك = شوف الزبون واعطيه شكله (٣ = عبد الله والمفتاح بيده

الكتابة

يكون القلم بايده ويكتب حالهُ من المعتّرين (٤ = من كان علمهُ في كتابه كان غلطهُ اكثر من صوابه = ما كُتب فقد كُتب = ما من المكتوب مهروب = يا عبدي لا تتحيَّر المكتوب ما بيتغيَّر = اكتب ولا تقابل كبّ على المزابل (٥ = المكاتبة نصف المشاهدة = رؤيا السطور كرؤيا الوجوه (٦

مختلفات

لا تقول للمصلّي صلّي ولا للمغنّي غنّ (٧ = ضلّيتُ اصلي حتى حصل لي . فلمّا حصل لي بطّلت اصلّي = يحبّ الرفعة ولو كان على الخازوق = ما هو موقّفنا عن السفر الّا الحفا (٨ = الذي فيه الله يعافيه (٩ = قالوا للجوعان: اثنين باثنين كم ؟ قال: هم

---

١) ويروى لهدنا هكذا: من بعد ما كنت سِيّدها صرتُ الطبّل بمرمها . والستّ بمعنى السيّدة والسِيْد بمعنى السيّد وهما عاميّتان

٢) ربما اخذ هذا المثل من قول الشاعر وان الشاعر عقده بقولهِ:

ان العيون رمتك اذ فاجأتها وعليك من شهر الثياب لباسُ
اما الطعامُ فكل لنفسك ما تشا واجعل لباسك ما اشتهاهُ الناسُ

٣) الزبون عند العامة بمعنى الحريف اي الذي يعاملك بحرفتك ويستعملونها بمعنى الصاحب ايضاً

٤) ويروى لهدنا هكذا: يكون الدفتر بايديه ويكتب حاله من المقطعين . والمقطعين عندهم بمعنى البائسين والمحتاجين الذي ليس لهم من يعولهم فكانهم انقطعوا عن الناس ويقال ايضاً المقطوعين بمعناها

٥) اي ان من نسخ ولم يقابل على الاصل ذهب تعبهُ سدًى

٦) يستعمل العامة الرؤية بالبصر بمعنى الرؤيا بالحلم

٧) ويروى عندنا اليوم هكذا: عمرك لا تقول للمغنى غني

٨) ويروى في ايامنا هكذا: ما هو مقصّرنا عن طلوع الجرد الا الحفا . والجرد بمعنى الجبل الوعر ولعلّها تحريف الصَرْد او انها مشتقة من الجَرْد لقلة الشجر فيهِ

٩) قول العامة: فلانٌ فيه يقوم . والذي فيهِ . بمعنى يقدر يقوم والذي يقدر فتكون عندهم كلمة « فيهِ » بمعنى يقدر

اربعة ارغفة = الشبعان بيفتّ للجوعان فتًا بطي = الذي عنده بهار بيرش على الخبيزة (١ = امَّا شيْ يصلح امَّا تركه اصلح (٢ = ان طعمت اشبع وان ضربت اوجع

الشراب

شمّ لا تذوق تبِت لا تقع = فرح في الفم عزا في البطن (٣ = قعده بمكنة خير من اكلة (٤ = ايش اكلت حتى اشرب = الدنيا بلا شراب خراب = على حجة الورد يشرب العلّيق (٥ = ان كنت خبير اشرب ودير (٦ = حدا بيخلي النهر ويشرب من الساقية = الذي بيشرب النهر ما بتغصّه الساقية = البير الذي تشرب منه لا ترم فيه حجر = قال: شرب الجرّة بيعفي الرقبة. قال: هذا تسلاية للذي ما عنده ابريق (٧

الضعيف والقوي وما بمعناهما

قال: الطرمس اطيب من اللوز. قال: هذه محارفة على مراضاة الاولاد (٨ = الذي بيجي بعصا موسى بيجي بعصا فرعون (٩ = الحكمة ماح الارض = العصا من الجنّة (١٠ = الزيت مـا بيطلع الّا بالمعصار = ضعيفين قبال قوي = مكسورين بصحيح = الكثرة بتغلب الرجال = من استهتر بالرجال براس اللفت يُقتل (١١ = اعرض بشبّ

---

١) اي من كثر الشيْ عنده انفقهُ جزافًا. وبمعناه من امثال عامتنا لعهدنا: كثرت الزبدة على العرب فمسحت بها دقونها

٢) ويروى اليوم بابدال كلمة امَّا بقولهم: يا. وهي بمعناها

٣) مفهوم هذا المثل ان كثيرًا من المآكل لذيذة في الفم عسرة على المعدة. ومرَّ معنا ان العزا عند العامة بمعنى المأتم فهي بمقابل الفرح

٤) المكنة هنا بمعنى الثبات اي قعود بثبات خير من الاكل

٥) تقول العامة: على حجة فلان اي لاجلهِ او بسببهِ ونحو ذلك. والمعنى ان نبات العلّيق الشائك يجاور الورد فاذا سُقي الورد شرب هو. اي ان الجار ينتفع احيانًا من جاره ونحو ذلك

٦) اي ان كنت خبيرًا اشرب الكاس وأدِرها على الجلّاس

٧) عفّى بمعنى غلّظ والمعفي الغليظ وكل ذلك عند العامّة. وتسلاية بمعنى تسلية عندهم

٨) المحارفة عند العامة بمعنى الاحتيال ونحو ذلك

٩) المعنى ان من لا ينقاد بالرفق ينقاد بالقساوة

١٠) المعنى ان العصا تؤدّب وتفيد

١١) استهتر بمعنى استهزأ عند العامة اي من استهزأ بالناس ولم يبالِ بهم قتلوهُ براس اللفت مع لينهِ وصغرهِ

وقاتل باختيار (١ = عقل الكبير كبير = يد الحرّ ميزان = الذي ما له كبير يشتري له كبير = كل صغير انتشا باس الكبير يده (٢ = بيطعم الجوز الذي ما له اسنان = خذ اخبارهم من صغارهم (٣ = اذا غضبت على قوم اجعل كبارهم صغارهم = اذا اردت ان تجرّس رجّال حِيلْ عليه مرا واذا اردت ان تجرّس مرا حِيل عليها صبي (٤ = حِيل عبّاس على دبّاس تَرَ العجب = اعطِ الريح لابو زوبعة (٥ = اعط القوس باريها واسكن الدار بانيها = الذي ما بيغار بيكون حمار (٦ = تينة قدّام تينة بتستوي (٧ = الكفر بالتشبّه = عاشر القوم اربعين يوم بتصير منهم (٨ = حطّ قدمك على قدم السعيد بتسعد = رزق الناس على الناس ورزق الكلاب على المجانين = الناس تَبَع الناس = الناس بالناس والكل بالله = الذي ما بيسمع من الناس ما هو من الناس = اكبر منك بيوم اخبر منك بسنة = من طاع هواه بلّغ عدوّه مناه = انصحه من بكرة للظهر فان انتصح كان والّا فاعكسه من الظهر للمسا = شاور اكبر منك واصغر منك وارجع لشور عقلك = لا تدخل للحضيرة الّا وانت نذير (٩ = الذي ما بيطيع ما بيطاع = من اطاع الله طاعتهُ الخليقة = الطاعة حياة والمعصية موت = تخرب بشوري ولا تعمر بشورك = كل من بيزرع حقله بعقله = كل من عقله براسه بيعمل خلاصه = كل من بيفتش على صالحه = كل من بيشدّ الحاف صوبه (١٠ = كل من بدّه

---

١) اي اظهر لعدوّك الشاب لترهبهُ وعند القتال ارسل لهُ الشيخ لانهُ عنك

٢) انتشا بمعنى ترعرع ونشأ. وباس بمعنى قبّل وذلك عند العامة

٣) ويروى لهذا هكذا : اكشفوا اسرارهم من زغارهم . اي صغارهم

٤) جرّسهُ بمعنى شهر امرهُ وحقّرهُ ونحو ذلك. وحيّل بمعنى ضع مقابلهُ ونحو ذلك. والمرا عند العامة تحريف المرأة

٥) اي سلّم الامور لأربابها

٦) اي الذي لا يغار على عرضهِ ونحوهُ لا يكون حساسًا

٧) تستعمل العامّة استوى الثمر والطبخ ونحوهُ بمعنى نضج والمعنى ان الامور تتمّ شيئًا فشيئًا

٨) ويروى لهذا هكذا : عاشر القوم اربعين يوم بتصير مثلهم.

٩) الحضيرة عند العامة ساحة البلد حيث يجتمع السكان. والحضيرة في اللغة الفُصحى بمعنى القوم المجتمعين

١٠) اللحاف ما يتغطى بهِ النائم وهو معروف. وصوبه اي جهتهِ وتقول العامّة لهذا مثل آخر بمعناهُ وهو : كل من يشدّ لصوب صدرهُ. والمعنى ان كلًّا يطلب النفع لنفسه

قضا مصلحته (١ = كل من بيغنّي على وجمه = كل طير واه بومه وكل قرد له جنزير (٢ = كل الدروب بتودّي للطاحون = كل شي ما بينبع بيخلص (٣ = كل طلعة قدأمها نزلة = كل قصير متكبّر = كل طويـل هبيل (٤ = كل اقرع جكر = صباح اليهود ولا صباح الاجرود (٥ = كل كوسـة شيطان (٦ = كل محجوب محبوب = كل جديد له لذّة = كل عود فيه دخان = كل قبيحة لها هيبة = ما كل مدوّر جوز ولا كل مطاول موز (٧ = ما كل الزلقات زلابية (٨ = ما كل من صف الصواني قال انا حلواني (٩ = لو كل من تماهـا رعاها كانت المرا بتقناها (١٠ = ما بيرشح الظرف الّا بما فيـه (١١ = الظرف الذي ما يتفخ بيكون مبوب (١٢ = هذه الصفاوات ما بتعبي ظروف (١٣ = زاد واحد يكفي اثنين (١٤ = الزاد الذي مـا يكفي اثنين واحد أحق فيه = من جرابك شيل وارقع من جرابي ما بتقشع (١٥ = لا بيسرح ولا

١) والمشهور بهذا المعنى لهدنا قولهم: صاحب الحاجة أرعن لا يروم الّا قضاها. وبدُّهُ اصلها بودِّهِ اي بارادتهِ ونحوها

٢) سبق انَّ الجنزير عند العامة مقلوب الزنجير بمعنى السلسلة واصلها فارسي

٣) وروايتهُ لهدنا هكذا: اللي ما بينبع بيخلص . اي ان الذي لا يكون من نبع يفرغ. ويخلص عند العامة بمعنى يفرغ

٤) الهبَلّ في اللغة الفصحى الرجل الطويل. واماَّ الهبيل عند العامة فهي بمعنى الابله ولم تنطق بها العرب هكذا

٥) تقول العامَّة اجرودي للاجرد الذي لا شعر في وجهه

٦) العامة تستعمل الكوسه لمن كان خفيف شعر اللحية

٧) المُطاول عند العامة بمعنى المستطيل

٨) الزلابية كلمة فارسيَّة معناها رقاق من العجين تُقلى بالزيت وقد تُعقد بالدبس

٩) الصواني عند العامَّة جمع صينيَّة بمعنى الطبق. والحلواني صانع الحلوى وبائعها

١٠) تما المعزى ونحوها اذا ناداها. والمعنى لو ان رعاية المعزى ونحوها بالصياح كانت النساء راعيات

١١) الظرف وعاء الخمر والزيت ونحوهما من جلد مدبوغ. وفي الامثال الفصحى: كل اناء بما فيهِ ينضح

١٢) والمعنى ان الوعاء الذي نفخ لا ينتفخ يكون مثقوباً. ويضربونهُ لمن عيل صبرهُ وضاق

١٣) الصفاوة بمعنى البقايا ونحوها

١٤) ويروى لهدنا هكذا: زاد واحد يقري اثنين اي يطعمهما

١٥) اي خذ من مالك لقضاء حاجتك. واما من مالي فلا. وتقشع بمعنى ترى وتنظر عند العامة ويستعملونها بمعنى لا تحصل على

بيعير الجراب (١ = بيسكّر بابه وبينادي: العيش يا جوعان = قال: يا مرا حوّشنا (٢ اجير بلا كري. قالت: وان كان بلا مونة بيكون احسن = بدّه قط من خشب يصطاد ولا ياكل = هل يفضل عن القط جبن = زنّر القط بالسجق ونادى عليه صاحب الامانات (٣ = مثل الخروف لا يعض ولا يخرمش (٤ = الذي بيليعب القط بيحتمل غراميشه = قال: ايش عايزك للمرّ. قال: الأمرّ منه = رضينا الهمّ والهمّ ما رضي بنا = صار لها رجّال قالت: اعور ما بريده = ان وجه الحريري وجه قرد والضرورة احوجتنا اليه (٥ = الجندي لمّا بيفلّس بيصير يفتّش على دفاتر بيّه العتاق (٦ = بدّه من الدواق سبع واق (٧ = اذا كان طبّاخك جعيص يا طال ما تشبع مرق = ايش ما طبخت الرعنا بياكل جوزها الاعمى (٨ = صار من يطبخ لك لاذا تخورق اصابعك (٩ = الذي بتحطّه بالدست بيطلع بالمرغنة (١٠ = ما بيفرقع بالدست الّا اوشم العظام (١١ = قال: يا مرا اطبخي طيّب. قالت: يا رجّال كثّر الادام

جحى

كن بالأوّل يا جحى ولو كان في حلق اللحى (١٢ = لمّا طلع جحى للنخلة اخذ

---

١) اي لا يذهب مع الماشية لرعايتها. ولا يعطينا الجراب لنضع فيهِ الزاد
٢) حوّش عندهم بمعنى جمع
٣) السجق عند العامة خرقة لها ذوائب متدلّية
٤) وبهذا المعنى لهدنا: مثل عترة القرعا. يضرب لمن كان هادئاً. وخرمش عند العامة بمعنى خمش ومثلها في المثل التالي الغراميش اي الخراميش بمعنى الخموش ونحوها ٥) الى ما كان عليهِ الحريري من قبح المنظر وجودة القريحة
٦) ويروى لهدنا هكذا: افتقر الجندي واندلق فتّش على دفاتر بيه العتاق. واندلق بمعنى انضاق وبيه اي ابوهُ ٧) الدواق اي الذوق
٨) الرعنا مؤنث الارعن بمعنى الحمقاء ونحوها
٩) والمروي لهدنا هكذا: اذا صار من يطبخ لك ليش بتحرق صابيعك. وتخَرْوق بمعنى تحرق
١٠) المرغفة مقلوب المغرفة للملعقة الكبيرة المعروفة
١١) والمروي لهدنا هكذا: ما يفرقع بالدست الّا كل عظمة. وربما قيل ما يقرحط بمعنى يفرقع
١٢) والمروي لهدنا هكذا: كن باول السوق يا جحى ولو بقطع اللحى

مداسه معه قالوا له: لماذا. قال: عسى يصير لي درب من هناك (١ = جحى صار يكذب حتى صار اذا صدق ما يصدّقوه (٢ = شال جحى العلكة من فمه حطها على راس انفه فسألوه قال حتى يضلّ رزقي قدام عيني (٣ = جحى جابه وجحى أكلهُ = هل ان جحى اكبر من ابوهُ = جحى أحق بلحم ثورهُ = جحى ما فيه لحماته بيقتل مراته = جحى واهل بيته عرس = قالوا: راح جحى واسترحنا منه. قال: صبحك بالخير يا خالتي = قالوا لجحى: اينا هو احسن ايامك. قال: لما كنت احمل التراب بذيلي = بتبشكر والا بترعى الجدا. قال: ما فيه كلام لبعد الغدا (٤ = قالوا لجحى: استرزق باب الله راح قعد على باب الفرن = قالوا لجحى: قل لابوك يشتري لك عرقية. قال: ضربه العمى اما هو شايفني (٥ = قالوا لجحى: ليش قبعك اعوج. قال: من كلمة الحق = مثل جحى ما فيه الّا لحالته = قالوا: لجحى صاير بحارتك شرّ. قال: عليّ بحالي = قالوا لجحى: متى تقوم القيامة. قال: يوم الذي بموت انا = قالوا: لجحى لماذا بتاخذ البيض خمسة وبتبيعه سبعة. قال: حتى يسموني تاجر = جحى اول ما صار شيخ باص اولاد حارته (٦ = كل من بهمّه وجحى بيقتل امّه (٧ = مثل مكسب جحى بالبيضات (٨

الآباء والقتال والامانة والخيانة

الاباء ياكلون حصرم والابناء يضرسون = تقاتل البحر والريح طاعت على

---

١) المداس نوع من الحذاء له عروتان ويكون غالبًا من جلد احمر

٢) ضلّ عند العامة مبدلة من ظلّ بمعنى استمر وهو كثير في كلامهم

٣) العلكة شيء يتخذ من البخور ونحوه ويُمضغ ولا يُبلع ويشتقّ منهُ فعل علك وعلك وقد يقصد بها كثرة الكلام تشبيهًا بمن يمضغ العلك

٤) بشكر باللغة العامة وضع ملاءة طويلة على ركبتيه لئلا يصيب الدسم ثيابه. والملاءة تعرف بالبشكير. والجدا جمع جدي

٥) العرقية شبه طربوش يتخذ للراس من القماش الابيض المعروف بالمقصور ونحوه وقد يتفننون بتطريزها وقد تُلبس تحت الطربوش لتقيه من العرق وكانها نسبت اليه في الاظهر وقيل انها منسوبة الى العراق

٦) باصه اخذ المال منهُ ظلمًا وبمعناها صادره

٧) ويروى ايضًا: كل من بهمّه وجحى يقبر امّه

٨) ويقال « مثل تجارة جحى بالبيضات » . وقد مرّ قريبًا اصل هذا المثل

المراكب (١ = تقاتلوا القيقان على كشك الجيران (٢ = تقاتلوا الزلاحف عفوا الضفادع = من تصدّك وجب حقه عليك = أمين وخاين ١٠ بيكون = مَن آمنك لا تخونه ومن خانك لا تأمنهُ (٣

مصر

قالوا: في مصر بيكبّروا اللقم. قال: على ما يفتّوا لك (٤ = قال: في مصر عيد. قال: ان فيه هريسة ما هو بعيد (٥ = قال: في مصر واحد بيغدّي. قال: ان كان بيقدّي (٦ = مصر ما هي بعيدة على من يزورها (٧ = يا داخل مصر مثلك الوف (٨ = قال: فشختي في مصر اربعين قدم. قال: هاديك ارض وهذه ارض (٩

الكذب

اذا اردت ان تكذب بعّد (١٠ شهودك = كن بعيد واكذب على ما تريد = حبل الكذب قصير = إلحق الكذّاب الى باب داره = الكذب ملح الرجال والعيب على الذي يصدّق = لسانك حصانك ان صنته صانك = لساني ما عدمتك كيف ما أردتُ درتك = الانسان بينربط من لسانه والثور من قرونه = اذا كان الكلام من فضّة السكوت من دهب = لا تتكلم بامان فالحيط له آذان وان ما كان له آذان خلفه انسان = قال: الله يخيّب الذي بيتكلّم في حق الناس. قال: بل الله يخيّب الذي

---

١) ويروى عندنا اليوم هكذا: تقاتل البحر والريح رموا الصالحة عالمركب

٢) القاق والقيق عند العامة بمعنى الغراب. والكشك طعام يتّخذ من اللبن والحنطة المسلوقة (البرغل) على طريقة معلومة ثم يُفتّ ويتّخذ للاكل

٣) ويروى هكذا ايضاً: من آمنك لا تخونه ولو كنت خوّان

٤) فتّ الخبز اي كسرهُ ليضمهُ في السوائل ونحوها

٥) الهريسة طعام تتخذه العامة اليوم من الحنطة والعظام وبعض قطع اللحم وهم يتنافسون بها

٦) بقدّي او يقضّي عند العامة بمعنى يكفي

٧) ويروى هكذا: مصر ما هي بعيدة على اللي بيزورها. ويقال ايضاً بدل مصر: «مكّة»

٨) ويروى ايضاً: يا داخل مصر مثلك كثير

٩) الفشخة الخطوة. وهاديك البدل من قولهم: هاتيك

١٠) ويروى: بيّعد وهي بمعناها

يخلّي (١ الناس تتكلّم فيه = الذي ما بتأثّر فيه الكلمة ما بتأثّر فيه الضربة (٢ = الكلمة التي ما بتنفذ يا دلّ قائلها = اقعد اعوج وتكلّم مقوَّم = مجنون يتكلّم وعاقل يفهم = نصف الكلام ما له جواب = زينة الكلام اخذ وعطا = السكوت ردّ الجواب = من كثر كلامه قلّ احترامه = اقطع دقنه ولا تقطع كلامه = ان صحّ المنام اخذنا الحيوان والّا فهو كلام في كلام

الشحاذة والفقر

القلّة بتورّث النقار (٣ = شحّاد ومشارط ما بيكون (٤ = الشحادة كيميا لكن الوقوف على الباب صعب (٥ = ما عمره شحّاد يحبّ صاحب مخلاية (٦ = الكسرة في يد الشحّاد عجيبة = الذي ما يحسب ما يسلم = الحسنة ما بتكون بالدبّوس (٧ = الذي ما يحسب لبعيد يقع قريب = حساب الذي حسبناه وقعنا فيه = كل شي حسبناه في الورق الّا الزلق = احسب الطلوع قبل النزول = احسب الخسارة قبل المكسب = حساب الحقلة ما بيقوم على حساب البيدر = حساب السوق ما بيجي على حساب الصندوق = لا تقول فول حتى تحط في المكيول (٨ = العشوة الطيبة بتطلع ريحتها من العصر (٩ = الفلّاح فلّاح ولو تعشّى من العصر (١٠ – لما بدها تشتي زلابية بتغيّم بعجين = وجه الكريم له علامات = بشّر القاتل بالقتل والزاني بالفقر (١١ (التتمّة لعدد آخر)

١) يخلّي اي يترك

٢) ويروى هكذا: اللّي ما بتقطع فيه الكلمة ما بتقطع فيه ضربة السيف

٣) النقار بمعنى الخصام والقتال

٤) اي ان الشحادة تكون على حسب ما يريد المعطي بلا شرط

٥) يقال الشحادة كيميا اي غنى وكأنهم يريدون بذلك الاكسير وهو تحويل المعادن الى ذهب

٦) اي ان صاحب الصناعة لا يحب حريفه اي مشاركه بحرفته

٧) الدبّوس عصا لها رأس مدملك كبير تتخذ للضرب. والمعنى ان الحسنة لا تكون بالضرب بل باللطف واللين

٨) المكيول عند العامة بمعنى المِكيال

٩) العشوة اي العشاء

١٠) اي ان تغيير عادة الفلّاح لا تخرجهُ عن لقبه

١١) ويروى هكذا: بشّر القاتل بالقتل والزاني بالفقر ولو بعد حين

المختار في كشف الاسرار

نظر للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع ما سبق)

وللجوبري فصل آخر افردهُ لطائفة من المكّارين الخدّاعين الذين دعاهم « اصحاب الكاف » ويريد بهم اصحاب الكيميا (alchimistes) وليست تلك الكيميا العلم الجليل الذي شاع في ايامنا ولهُ اصول مقرَّرة وقوانين ثابتة مبنيَّة على الاختبارات وعلى تحليل العناصر المركَّبة وتركيب الاجسام الطبيعيَّة ومعرفة خواصها. وانَّما كانت الكيميا في القرون الوسطى فنًّا كثر فيه التدليس فيزعم اصحابهُ انهم يستطيعون ان يغيّروا خواص المعادن فيجعلوا النحاس فضَّة والفضة ذهبًا وذلك بواسطة مزيج يدعونهُ الاكسير. وكان جلَّة من علماء العرب كابن سينا والرازي والفارابي وابن جابر وغيرهم يسعون في تحقيق امنيتهم غاية جهدهم ويقصدون بذلك غاية علميَّة وقد ادَّت بهم اختباراتهم الى وضع المبادئ الاولى لعلم الكيميا الحاليّ. الّا ان قومًا غيرهم اتخذوا هذا العلم للغش والمكر كما بيَّن الجوبري في اوَّل هذا الفصل وهو التاسع في بعض النسخ واما في نسختنا فهو الثامن والعشرون وقد قسمهُ الى تسعة ابواب (ص ١٣٨— ١٥٤) قال:

اعلم انَّ هذه الطائفة اعظم الطوائف تسلُّطًا على اموال الناس وانهم في الحقيقة دكّاكون (اي نصّابون). ولو علم احد منهم شيئًا بين اليدين ما أطلع عليهِ احدًا من العالم ولو كان لهُ حاجة الى الخلق اجمع لأنَّ الذي يريدهُ من الناس قد حصل لهُ . . . واعلم انَّ هؤلاء الذين يتكلَّمون في هذه الصناعة قوم ينصبون على الناس ويأكلون اموالهم بالباطل . . . واعلم يا اخي وفقك الله تعالى اني كشفت لهم ثلثمائة طريقة في الدكّ لا يمكن شرحها خوف الاطالة بل نذكر منها البعض ليستدلّ بها العاقل على الكلّ . . .

ثم جعل الجوبري يعدّد بعض حيلهم فقال:

فمن ذلك انهم اذا ارادوا ان يدكّوا شيئًا يعتمدون على من يكون طالبًا لهذه الصناعة من المياسرة فيرغبون الوصول الى معرفتها وينفقون عليهم بذلك فيقول احدهم للطالب: انا افرّجك. ثم يأخذ شيئًا من الذهب والفضَّة ويدكّهُ عليهِ ويقول لهُ: انزل بِعْهُ في السوق بيدك فيأخذ ذلك وينزل بهِ الى الصاغة ويبيعهُ بأوفى ثمن فيجيء الى الشيخ ويدفع لهُ الثمن فيقول: « والله ما يدخل

الى ما يكي منهُ شيءٌ فاني غير محتاج اليهِ . هـذا يكون برسم نفقة الصغار » . ثم يلازمهُ اياماً فيعمل لهُ شيئاً آخر فيرمهُ مرةً ثانية وثالثة حتى يسبي عقلهُ ويتمكَّن منهُ وياخذ منهُ عوض الدراهم دنانير .
واما كشف دكهم فانَّ منهم من يعمل الدكَّ في فحمةٍ ويترل ما فيها في البوتقة فاذا علم ذلك قوى النار فتحترق العقاقير التي وضعها في البوتقة وتبقى الدكَّة فيقلبها فتترل السبيكة ذهباً كانت او فضةً على قدر ما يُدَكّ لهُ فيذهل العقول ويسلب الاموال . ثم يطلب منهُ شيئاً آخر فيدَّعي انَّ الاكسير الذي عندهُ قد فرغ وانهُ لا يمكنهُ عمل اكسير ثانٍ في هذا الوقت فلا يزال يلحُّ عليهِ حتى يذعن بالعمل فيقول لهُ : « هذا يطلب تعباً عظيماً وخسارةً الَّا انهُ اذا انتهى صار لك منهُ مال جزيل لا يقع عليهِ قياس » فيطمعهُ فيهِ ويقيم عندهُ في أكل وشرب وكسوة ستة اشهر او سبعة اشهر وفي كل يوم يطلب منهُ خمسين او ستين درهماً فيحصل من ذلك جملة ثم يدَّعي انهُ فسد . . .
ومنهم من يعمل للبوتقة طبقتين فيكون الدكّ في الطبقة السفلى وتكون الطبقة العليا مثقوبة الاسفل مسدودة بشمع فاذا جعل الرصاص فيها وساقَ عليها حتى يحترق تذوب الدكَّة ويذوب الشمع فاذا قُلب ترلت كلّها من البوتقة وقد صارت رماداً وتترل السبيكة اما ذهباً واما فضةً فيذهل العقول فأَفهمهُ

ثم أتبع الجوبري هذه التفاصيل باخبار بعض المخدوعين بمكايد هؤلاء الخبثاء نختار منها خبرين جريا في زمان المؤلف :

الدمشقي المغفَّل

(قال) ومن ذلك اني رأيتُ بمدينة دمشق رجلًا نصرانيًا يُعرف بابن ميسرة صائغًا فبينما هو يوماً في الدكان اذ أتى اليهِ رجلٌ وناولهُ سبيكة فضَّة مقدارهـا ثلثمائة درهم وقال لهُ : ادفع هذه السبيكة للدلَّالين ليبيعوها لي . فقال الصائغ : على الحمى تبيع ؟ قال : وعلى الروباص . فاعطاها لمنادٍ فباعها المائة بمئة وعشرة . هذا وقد اقعدهُ الصائغ على الدكان الى جانبهِ . فلمَّا قبض الثمن دفع للمنادي اجرة وافية ثم رمى بخمسة دراهم وقال للصائغ : ارسل احد صبيانك ليشتري لنا شيئاً نتملَّح بهِ . وحلف بالحرَام انَّهُ لا بدَّ ان يفعل ذلك . فارسل من اشترى واكلوا . ثم جلسا ساعةً يتحدَّثان . ثم قام ونزل من الدكان وقد وضع تحت نطع الصائغ عشرة دراهم .
ثم انهُ عاد بعد مدَّة وصعد فجلس على دكان الصائغ ففرح بهِ وتحدَّثا ساعةً ثم اطلع سبيكة اكبر من الاولى فدفعها للمنادي فجاءت المئة بمئة وخمسة عشر . فالتفت الى الصائغ وقال لهُ : ان كان لك بها حاجة فخذها وزنًا بوزن . فاخذهـا ثم عمل

كالرّة الاولى فمنعهُ عن ذلك وقال : يافلان ايش تخاف عليَّ . هذه المائة تدوم عليَّ بدرهم او درهم ونصف فما عسى ان يروح منها . فلما سمع الصانع عظم الشيخ في نفسهِ . ثمَّ انصرف وغاب اياماً ثم جاء ولم يصحب معهُ سبيكة فسلّم وصعد وجلسا يتحدَّثان وصار كلَّما مرَّ شيء من الحلوى او من المآكل قال : حطّ زنْ . فيشتري ويأكل هو والصانع وكلّ من في الدكان والجيران واقام اياماً يتردَّد ولم يصحب معهُ شيئاً من السبائك . فسالهُ الصانع عن سبب تاخير السبائك . فقال : والله كنت قد عملت اكسيرًا ففرغ . فلمَّا سمع الصانع ارتبط ثم تحدَّث معهُ ساعة فقال لهُ الصانع : اشتهي ان تأكل معي في بيتي خبزًا وملحًا لتجبر قلبي . فقال : « انا ما اريد ان اكلّفك . فاقسم عليهِ فقال : ان كان لا بدَّ منهُ فهذه عشرون درهماً اعمل لنا بها شيئاً نأكلهُ . والتزم بالحرام انهُ لا بدَّ من ذلك . ثم تواعدا الى يوم معلوم

فلما كان ذلك اليوم جاء الرجل الى الدكان فوجد ابن الصانع ينتظرهُ فاخذهُ وتوجَّه بهِ الى الدار . فلما استقرَّ بهما الجلوس قدَّم الصانع شيئاً فاكلاهُ ثمَّ احضر حلوى فتحلَّيا . ثم جلسا يتحدَّثان فقال الصانع : لِمَ لا تعمل الاكسير . فقال : يا ولدي انَّ عندي الساعة « انفقهُ فلست انا محتاجاً الى عمله . ثم لم اجد في هذه البلدة مكاناً ولا صاحباً اركن اليهِ وانا وحدي لا اقدر ان ادبّر شيئاً . فقال لهُ الصانع : يا سيدي هذه القاعة ملكي وما لي فيها اهل وانا في برسم صاحب او صديق فاخليها لك وانا اخدمك وابني يكون في الدكان ومهما احتجت اليهِ انا أحضره لك . فقال : « أمَّا الاكسير فما نصرف عليهِ اكثر من عشرة دراهم واذا صار الاكسير نعمل منهُ قناطير الَّا انَّهُ يريد تعباً كثيرًا وطول روح وانا اليوم ما لي همَّة للعمل وعندي « انفقهُ عشرين سنة » وصار يمتنع وصاحب البيت يسألهُ ويتضرَّع اليهِ ويحلف عليهِ ان يبيت عندهُ تلك الليلة . ولم يزل ملحاً عليهِ حتى رضي وتقرَّر الحال معهُ ثم تحالفا على وفاء العهد وزاد الصانع انهُ يقنع من الاكسير باليسير . فقال لهُ الشيخ : بل انا اقنع منهُ بمثقال وخذ انت الباقي . ففرح الصانع بكلامهِ وطمع ان يتعلّم الاكسير . ثم توافقا على يوم معلوم وتفرَّقا

ولمَّا كان اليوم الموعود اشترى الشيخ الحوائج ولم يكلّف الصانع بشيء . فلما سحق من الحوائج « ما يمكن سحقهُ ونقع منها ما يُنقع قال للصانع : أتريد ان تعمل اكسير ذهب او فضَّة . قال : من هذا شيئاً ومن هذا شيئاً . فقال : اقسم هذه الحوائج نصفين ثم

هات ما امكنك من الفضّة والذهب حتى نتقعها في الماء اسبوعاً ثم نستقي بها هذه الادوية. فاحضر لهُ الصانع ستمائة دينار ذهباً والف وخمسمائة درهم فضّةً ووضع ذلك بين يديهِ. فصرّ ذلك في صرتين ووضعها في اناءين وسكب عليهما ماء. ثم اقاموا سبعة أيام يخدمون تلك الحوائج. ثم قال للنصراني: اطلع الى جبل المزّة اجمع لنا من الحصا الذي يُعرف ببُزاق القمر مقدار رطل واحد فقام الصانع وتوجه الى الجبل وعمد الرجل الى الصرّتين فاخذ ما كان فيهما ووضع في احداهما فلوساً ونحاساً وفي الاخرى رصاصاً. فلما جاء الصانع بالذي طلب منهُ قال لهُ: هذا يريد يتكلّس في اتون الزجاج ليلة كاملة ثم يُخدم نصفهُ بماء الذهب ونصفهُ بماء الفضّة. فاذا تكلّس اقسمهُ ثم اخدمهُ وخرج لصلاة الجمعة فاستقبل الدرب ولم يطلع لهُ خبر

فاقام الصانع ينتظرهُ مدّة ولم يفتح صرّة الذهب ولا الفضّة. فقال لهُ ابنهُ: لا يكون اخذ الذهب والفضّة وراح. فقال الصانع: ما اجهلك وحقّ المسيح انهُ يقدر ان يجمع خزائن اموال فكيف هو محتاج الى ذهبنا. وقال لهُ ابنهُ: كن عاقلاً وانتقد الذهب وخلِّ عنك الطمع. فلم يفعل وقال: انت قصدك ان تفسد علينا الشغل. فعاودهُ ابنهُ في ذلك فلم يفعل فقام ابنهُ خفيةً وفتح صرّة الذهب فوجدها فلوساً وكذلك الفضة رصاصاً. فلطما الرؤوس حتى ذهبت منهما النفوس. فانظر الى هذا الدهاء والمكر

العجمي والملك العادل نور الدين

ومن اعظم ما وقفتُ عليهِ واظرف ما جرى للسلطان الملك العادل نور الدين بن زنكي رحمهُ الله وهو حديث يصلح ان يُكتب بماء الذهب وذلك ان بعض الاعاجم جاء الى دمشق فاخذ الف دينار مصريّة فبردها برادةً ناعمة ثم اخذ دقّ الفحم واضاف اليهِ عقاقير مجمّعة وطحن الجميع وعجنهُ بغراء السمك ثم جملهُ بنادق وجفّفها تجفيفاً ناعماً. ثم لبس دلقاً وتزيّا بزي الفقراء وجعل تلك البنادق في مخلاة ثم اتى الى بعض العطارين فقال لهُ: أتشتري مني هذا. فقال لهُ العطار: ولأيّ شيء ينفع هذا. قال: ينفع من السموم القاتلة ويدخل بجميع الادوية التي تنفع للأخلاط ولهُ نفع عظيم غير هذا ولولا اني قد ادركني الحاج وما اقدر على حملهِ ما بعتهُ فانهُ يساوي الذهب وزناً بوزن عند من

يعرفهُ فقال العطار : وبكم هو . فقال : بعشرة دراهم . فاتفقـا على خمسة دراهم فاخذ العجمي الدراهم وجعل العطار الطبرمك (١ الخراساني في علبة عتيقة . فانظر الى هـذا الرجل ما اجسرهُ باع الف دينار بخمسة دراهم لقد قالوا في المثل : من خاطر بنفيس ظفر بنفيس

فلما انفصل من عند العطار جاء الى منزله ولبس احسن ما يكون من ملابس الوزراء والملوك وجعل خادمًا مملوكًا واكترى دارًا حسنة تصلح للوزراء وصار يخرج الى الجـامع ويتعرَّف بالاكابر من اهل البلد ويعمل السماعات ويصرف جملةً في كل ليـلة ويدَّعي الوصول في علم الصناعـة (اي الكيميا) وانهُ يقدر يعمل في يوم واحد جملةً من المال

وشاع ذلك عنهُ في دمشق . فسألهُ الكبراء ان يعمل عندهم فامتنع وقال : « ما انا محتاج الى احد فاني في يوم واحد اعمل بمقدار نعمة مَن يريد ان اعمل عندهُ . فان كان لاجل مُلك او بستان فانا اقدر اشتري عشرة بساتين ومثلهـا دور . وان كان لاجل جاه فانا ما اعمل شيئًا عليَّ دركُهُ فانَّ الذي اعملهُ ما فيه غشٌ ولا زغل حتى اطلب فيه جاه احد . هذه صنعة الهيَّة وقد آليت على نفسي ان لا اعمل بها الَّا للملك بعد ان يعاهدني انهُ لا ينفق منهُ شيئًا الَّا في سبيل الله فان حصل هذا الشرط عملتُ والَّا فلا سبيل لعمل شيء على غير هذا الوجه »

فلما سمع الوزير ذلـك قال : والله هذه سعادةٌ للمسلمين والسلطان والآن هذه البلاد كانها للفرنج الى بانياس وكل يوم تصل الغارات الى ديارنا (ويروى : الى داريَّا) فاذا عمل شيئًا نفتح به البلاد فهذه نعمة عظيمة . ثم قال للرجل : أعرف السلطان بالامر ؟ قال : نعم لكني اريد ان لا تجمع بيني وبينهُ الَّا بعد ان تستوثق منه باليمين . فقال : نعم

ثمَّ ركب الوزير من الغد الى الخدمة فخلا بالسلطان وعرَّفهُ بامر العجمي . فقال : والله انَّ لي اياما افكر في شيء يكون فيه قلع هؤلاء الملاعين من هذه البلاد . ثم رسم للوزير باحضاره في غاية الكرامـة فاحضر لهُ بغلة خاصّة . ثم دخل على السلطان وقبَّل الارض لدى الحضرة الشريفة . فاجلسهُ السلطان واكرمهُ وحادثهُ ثم قال لهُ : أصحيح ما

١) الطبرمك ويقال الطارمك لفظة فارسية لنبات وقيل لمعدن وهي كان يزعم اصحاب الكيميا القديمة انَّهُ يدخل في استحضار الاكسير

قال الوزير عنك . فقال : نعم يا مولانا السلطان لكن على الشرط الذي تقرَّر مع الوزير . فقال السلطان: قبلنا بالشرط . ثم قال العجمي: يا مولانا ان جميع من يدَّعون الصناعة كذَّابون دكَّاكون وانا شرطي معكم اني لا امسّ شيئاً بيدي بل اكون بعيداً واقول: افعلوا كذا وكذا ومولانا السلطان يعمل بيدهِ او يأمر من يفعل بحضوره . فقال السلطان : رضينا ايضاً بهذا الشرط

فاخذ العجمي ورقة وكتب فيها اسماء الحوائج وذكر اجزاء من عقاقير شتَّى ثم قال: ومن الطبرمك الخراساني مئة مثقال . ثم دفع الورقة الى استدار السلطان . فقال السلطان للوزير: أحضر هذه الحوائج . فاحضر الوزير جميع الحوائج وعجز عن الطبرمك الخراساني فلم يجده فقال: انهُ ما يوجد الَّا في البيمارستان . فقال السلطان: اطلبوه من البيمارستان والحكماء . فطلبوهُ فلم يجدوهُ . فقال السلطان للعجمي: أليس شيءٌ يغني عن الطبرمك . قال: لا ولكن ما اظن انَّ دمشق تخلو من هذا العقَّار . والذي اراه ان مولانا يرسم للمحتسب ان يركب في الغد والمملوك في خدمتهِ ومعنا شاهدان من العدول وندور على دكاكين العطارين الذين بالمدينة فنفتشها دكَّانًا دكَّانًا فلعلَّنا نجد عند احد شيئاً منهُ . فقال الوزير : رأي مليح حسن . وكان المحتسب يقال لهُ القائد . فارسلوا الى القائد ان يفعل ذلك

فلما كان الغد ركب الوزير والعجمي والقائد والعدول وسبروا الدكاكين دكَّانًا دكَّانًا حتى انتهوا الى دكان العطَّار الذي باعهُ العجمي الطبرمك فجعل صاحب الدكان يقدّم لهم برنيَّة بعد برنيَّة حتى اتاهم بالبرنيَّة التي فيها الدكَّة التي باعها من العجمي وسمَّاه بالطبرمك الخراساني . فلما رآها العجمي تهلَّل وجههُ بالفرح واشتراها منهُ بشيء يسير . ثم قال العجمي: اختموا على هذه البرنية بختمكم وابعثوا بها الى السلطان . ثم جاؤوا الى السلطان فقال العجمي: اريد من الآلات كذا وكذا . فاحضر لهُ جميع ما اراد من الآلات . ثم جلس السلطان وحدهُ في صفَّة وجلس العجمي ناحية ثم قال: يا مولانا السلطان زِنْ من العقار الفلاني كذا وكذا ومن الشيء الفلاني كذا . ثم قال : ومن الطبرمك مائة مثقال ولا زال يقول: افعلوا كذا واصنعوا كذا مدَّة ايَّام الى ان قال للسلطان: ان الاكسير قد انتهى شغلهُ فاحضروا لنا بودقة وفحماً ومنفاخاً . فاحضروا لهُ ذلك ثم قال للسلطان: حط بيدك هذه الحوائج فاخذ السلطان يعبي في البودقة من ذلك الدواء

وصار العجمي ينفخ النار الى ان دار الذهب فقال للسلطان: اقلب على بركة الله تعالى. فقلب. فنزلت سبيكة ذهب مصري لا يكون احسن منها شيء. ولا زال يقلب سبيكة بعد سبيكة حتى فرغ الدواء. ثم اعتبروا ذالك فوجدوهُ الف دينار. ففرح السلطان بذلك فرحاً شديدًا واكرم العجمي اكرامًا زائدًا

ثم قال السلطان: أما تعمل لنا من هذا شيئًا آخر. فقال: السمع والطّاعة أحضر لي من هذه العقاقير وانا اعمل ما اراد مولانا السلطان. فطلبوا الطبرمك فلم يجدوهُ فسأل السلطان عنهُ العجمي فقال: «انهُ نبات ينبت باراضي خراسان (ويروى انهُ معدن في الجبل في مغارة) وهو رخيص الثمن جدًا فاذا رسم مولانا السلطان ان يُحمل لهُ الف حمل وُجد ذلك وانا دخلت اليها وحملتُ من ذلك شيئًا كثيرًا وعندي في داري نحو قنطار». فلمَّا سمع السلطان قال: والله ما نجد من يروح يحضر لنا من هذا العقار اخبر منك وان تعذَّر تحصيل ذلك من منابته ومظانـه احضرت لنا الذي عندك وانا اكتب معك الى سلطان خراسان بمساعدتـك ومَنْع من يتعرَّض اليك. فتمنَّع العجميّ وقال: ان رأى مولانا السلطان ان يبعث غيري فليفعل فانَّ نفسي قد طابت في دمشق وفي خدمة الحضرة الشريفة. فقال: لا بُدَّ من رواحك فانَّ لك في ذلك اجرًا عظيمًا. ولم يسألهُ حتى انعم بالسفر. فجهَّزهُ بستين حمل قماش منها شرب (اي كتَّان) عمل تنيس ودمياط ومنها عمل الاسكندرية وغير ذالـك واعطاهُ خيمًا وطبخانًا وفرّاشين ونفقة الى بغداد واوصاهُ اذا وصل اليها ان يبيع ما معهُ ويتفرّ الى العجم وكتب معـهُ كتبًا الى سائر البلاد بالكرامة والخدمة. وراح في نهاية ما يكون من التعظيم وخرج معـهُ السلطان وجميع ارباب الدولة فودّعوهُ وسافر وقد ظفر بالاكسير الاعظم. ولم يطلع لهُ من بعدها خبر. فانظر الى مكر هؤلاء القوم وكيف يتوصَّلون الى اخذ اموال الناس بالحيل ابعدنا الله واياكم عنهم وعن هذه الافعال واجارنا الله واياكم من الفتن والاحوال

ومن اظرف ما في هذه القصَّة انهُ كان بمدينة دمشق رجل يكتب اسماء المغفَّلين والخارفين فسمع بهذه القضيَّة وعلم باطنها فلمَّا تحقَّقها كتب على راس جريدته: «نور الدين محمود ابن زنكي رأس الخارفين». فشاع ذلك في دمشق ولم يعلم احد باطن الامر الَّا انهم يقولون انَّ فلانًا كتب عن السلطان كيت وكيت. فاتصل خبرهُ بالسلطان فقال: وما حملهُ على ان يكتب اسمي مع المغفَّلين. هاتوهُ. فنزلت الجنادرة وقالوا لهُ: كلّم مولانا.

السلطان: فاخذ الجريدة في كمّه ومشى معهم. فلما وقف قدّام السلطان قال له: انت فلان. قال: نعم. قال: وانت تكتب اسماء الحارفين. قال: نعم. قال: وكتبتني في جريدتك. قال: نعم وهذا اسمك. ثم اخرج الجريدة فاراهُ اسمهُ فيها. فقال السلطان: وما الذي رأيت من حِرافي حتى كتبتني. فقال: كيف لا اكتبك وقد جاء رجلٌ نصّاب غشّك ودكَّ عليك الف دينار اخذ بها اموال المسلمين وراح ليجيءَ لك بالطبرمك فهل يكون حِراف ابلغ من ذلك. فلما سمع السلطان كلامهُ قال لهُ: كأنّا به وقد جاء ومعهُ الطبرمك فيعمل منهُ اموالًا لا تحصى. فقال: يا مولانا السلطان ان جاء محوتُ اسمك وكتبت اسمهُ. فضحك السلطان ورسم لهُ بنفقة ورواح. فكان كلّما افلس اخذ الجريدة ووقف على باب القاعة فاذا ركب السلطان فتح الجريدة فيقول: ما جاء العجمي وهذا اسم مولانا السلطان. فيضحك السلطان ويرسم له بشيء فياخذه ويروح واقام على ذلك مدّة حياة السلطان وما جاء الطبرمك

وقد الحق الجوبري هذه القصّة بخبر مغربي يدعى عبد الله المغاوري (ويروى القمري) وقف على حيلهِ احد موالي الامير عزّ الدين ايبك المظّمي المتوفي سنة ٦٥٥ (١٢٥٧) (التتمّة لعدد آخر)

سياحة في سويسرة

لشاب الاديب جرجي بن يوسف اليان سركيس احد طلبة الهندسة في كلّية لوزان (تتمّة)

بعد ان زرنا مدينة لوسرن ومتّعنا الابصار بما فيها من الآثار والمشاهد البديعة غادرناها سائرين الى زوريخ. وكان سفرنا في ظهيرة الاربعاء ١٩ آب على ظهر باخرة قطعت البحيرة على طولها (وهو يبلغ ٣٢ كيلومترًا) في مدّة ساعتين ونصف. وكان هذا من ابهج واشوق الاسفار لما كنّا نعاينهُ في طريقنا من المناظر الفتّانة على ضفّتي البحيرة فكنّا نوجه الابصار الى الآكام والرُّبى المحدقة بها وكلّها مكسوَّة بالعشب الاخضر تزينها الغياض وتجلّلها ضروب الاشجار. ووراء هذه التلال تشرف جبال شاهقة اخصّها جبل ريجي (Rigi) الذي موقعهُ في مركز بلاد سويسرة يبلغ علوّهُ ١٨٠٠ متر ومن

قمّته ينظر الناظر ما يأخذ بمجامع الفؤاد ويسبي حشاشة الاكباد واكثر الزوّار يقصدون هذا الجبل رغبةً في محاسنهِ ومعاطنهُ اشبه بجنّة غنّاء تشتمل على اجناس النبات وصنوف الاشجار

وبعد برهةٍ من الزمان رأينا ضفّتي البحيرة قد تقاربتا حتى كادتا تتماسّان فجرينا في هذا المضيق نميل تارةً الى اليمين واخرى الى اليسار ولاحت لنا على شاطئ البحيرة طريق غريبة للعجلات فتحها السويسريون في قلب الصخور التي تنتصب في جانبي البحيرة فالطريق منقورة في الصخر الاصمّ ترى حيناً مكشوفة وحيناً نافذة في الأنفاق ذات كوى منيرة. والسابلة يجرون فيها لبهجة مناظرها. وكثير من هذه الانفاق قد نُقر في الجبل على هيئات بديعة كالاروقة والمعاهد والقاعات تستند سقوفها الاعمدة والسواري

وألقت الباخرة مرساها عند محطّة اسمها تِلسبلات يشرف عليها جبل يعلو ١٧٠٠ متر فوق سطح البحيرة وهناك ينزل السيّاح ليزوروا مشهداً اقامهُ السويسريّون كأثر وطني ذكرًا لتحرّر بلادهم من جور الظالمين في اواسط القرن الرابع عشر ألا وهو غليوم تال البطل الصنديد. والمشهد المذكور شهير في كل هذه الجهات في وسطه تمثال عجيب يُعدّ من طُرف الصناعة

ثمَّ جرت بنا السفينة ونحن لا نزال نتنقّل من منظر الى آخر وكنّا نرى جبال ايالة شويتز (Schwytz) السامقة بعلوّها ونحن نودّ لو يسمح لنا الوقت بالتجوّل في نواحيها ونرقى الى معبد هناك قديم العهد ذائع الشهرة يحجّ اليه كل سنة نيّف ومائة الف من الزوّار اعني مزار السيّدة البتول في أينسيدلن (Einsiedeln) وهناك دير للبندكتيين بُني في القرن العاشر. امّا كنيسة العذراء فمن بدائع الهندسة فيها عدد لا يُحصى من الآنية الثمينة والتماثيل البديعة والنقوش الصناعيّة والتصاوير التي تُنسب لمشاهير الصنعة من جملتها صورة السيّدة العجائبيّة يعرضونها في بعض الاعياد بأبّهة عظيمة وعيدها الكبير في ١٤ ايلول يتقاطر اليها الناس من سائر جهات سويسرة بل من جهات اوربّة البعيدة. وفي الدير متاحف غنيّة بضامينها منها للمعادن ومنها للنبات ومنها للآثار القديمة. والرهبان مشهورون بفضلهم لهم مطبعة كبيرة مجهّزة بكل الادوات الطبيعيّة من الطرز الجديد. وعندهم مكتبة غنيّة بمخطوطاتها الثمينة اللاتينيّة واليونانيّة والالمانية يقصدها العلماء لذلك

ثم انتهينا بعد ساعة الى قرية فلولن وهي اقصى محطة السفينة في تلك البحيرة التي يبلغ طولها ٣٢ كيلومترًا قطعناها بساعتين ونصف . فنزلنا هناك وانتظرنا القطار ان يسير بنا الى مدينة زوريخ فما لبث ان جاء يهدر بعجيجه ويملاء الفضاء بصفيره فركبناه . فسار يطوي بنا السهول وكانت البحيرات تبدو لنا من اليمين تارةً ومن الشمال اخرى وتتاوحنا على الجانبين المروج والآكام الخضراء والبيوت البيضاء المكنونة بين الادغال حتى وصلنا الى محطة أرت گولداو (Arth-Goldau) باسم قريتين هناك موقعهما في لحف جبل ريجي المذكور الذي تُرى هامتهُ المعمَّمة بالثلج على علوّ ١٥٠٠ قدم وقد اصطنع السويسريُّون اربع او خمس سكك حديديَّة ذات سلاسل للصعود الى مشارفه والتمتع بمشاهده الساحرة . وعند قريتيّ أرت وگولداو حدث سنة ١٨٠٦ انخساف جبل روسبرغ فسُمع لهبوطهِ دويّ على مسافة بعيدة وتحدرت الى قعر الوادي صخور الجبل واشجاره وكل مبانيه زاحفةً بما وجدت في طريقها من المواشي والاهلين حتى خيّل للسكان انَّ الساعة قد قامت . وقد مات بذلك الحادث مئون من البشر وبادت قريتا أرت وگولداو

ثم أبدلنا قطارنا بقطار آخر جعل يذهب بنا الارض الى زوريخ . وكان مرورنا على بُحيرة تسوغ (Zug) الرائعة المنظر التي ترکو على اطرافها الغلّات وتنمو الاشجار المثمرة والكروم . وبها دُعيت إيالة تسوغ احدى ايالات سويسرة الشهيرة بجمالها ووفرة محاسنها ولها حاضرة باسمها على ضفَّة البحيرة

وقد فاتني ان اذكر انّنا منذ دخلنا فريبورغ اصبحنا في المقاطعات التي لا يتكلّم اهلها غير الالمانيَّة فكنّا نحتاج الى ترجمان يقضي لنا حاجاتنا

احتللنا زوريخ اصيل النهار يوم الاربعاء ١٩ وهي حاضرة احدى الايالات السويسريَّة المتَّحدة كما انها تُحسب كعاصمة سويسرة الكبرى يبلغ عدد سكّانها مع ضواحيها نحو ١٧٠,٠٠٠ نسمة موقعها في بطحاء واسعة معتدلة الهواء عند طرف بُحيرة تُعرف بها حيث يخرج نهر لمات (Limmat) فيشقّ المدينة ويمدّها بمياهه الطيّبة . وايالة زوريخ كثيرة الجبال دافقة الانهار على تخومها يجري نهر الرين الزاخر ويتحدَّر بجنادل كجنادل مصر

وزوريخ احدى مُدن الدولة الاولى تعقد فيها الحكومة جلساتها وتقضي بالامور العموميَّة الشاملة لصوالح البلاد . ولزوريخ شهرة واسعة بكثرة معاملها ولاسيما المعامل

الحريريَّة التي كادت تجاري بحسن منسوجاتها اجود منسوجات غيرها . وفي هذه المدينة كليَّة يزدحم الشبَّان في مكاتبها العلميَّة وهي المدرسة الجامعة التي لا يقلّ معلّموها عن ١٣٠ استاذاً وتلامذتها عن ٣٠٠٠ ولما تمَّ آخر هندسي طلبتهُ زهاء الف طالب ومعلّموهُ نيّف ومئة . وفي هذه المدارس تخرَّج رجالٌ من نخبة العلماء كالمؤرخين والشعراء والكتبة والاثريين والفقهاء . ومن جملة ما تحويه معاهد تلك الجامعة متحف آثار البشر الاوَّلين الذين عاشوا قبل الطوفان او قبل التاريخ المعروف اي طور الظرَّان . وهناك كذلك متحف صناعيّ جامع لادوات الفنون الصناعيَّة منذ القرون الوسطى الى عهدنا يُوقف الناظر الى آثره على تقدُّم الصناعة في القرون الاخيرة في انحاء اوربة . وخلاصة القول انَّ زوريخ استحقَّت بهمَّة اهلها أن تُدعى باثينا سويسرة وبحيرة زوريخ من ابدع بحيرة يُحدق بها ثماني عشرة قرية وعدَّة دساكر وعليها تنقل السفن واردات ايطالية الى سويسرة وصادرات سويسرة الى ايطالية

وفي ظهيرة يوم الغد طارت بنا اجنحة القطار الى مدينة ونترتور (Winterthur) وبُعدها عن زوريخ اقل من ساعة وهي في موقع مدينة قديمة كان يدعوها الرومان باسم فيتودورُم والبلدة الحاليَّة كثيرة البهجة شهيرة الاعمال الصناعيَّة تباري بها زوريخ وفيها المعامل القطنيَّة ومعامل ورق الكتابة بكل اجناسه . ذلك فضلاً عن حدائقها وغياضها

وكان موعدنا في مساء ذلك النهار بلدة صغيرة اسمها فراونفليد لا يزيد سكانها عن ٧٠٠٠ نفس . وهي وطن المسيو بوبر الذي كان رافق الشقيق من تونس وسبقنا الى مسقط رأسه . فاضافنا في منزله وبالغ في اكرامنا حتى كدنا نحسب نفوسنا بين الاهل والاحباب في بلادنا الشرقيَّة . والحق يقال انَّ اهل سويسرة يحسنون وفادة الضيوف ولا يألون جهدهم في اكرامهم حتى انَّ لطفهم يزيد رغبة الوفود في زيارة بلادهم العجيبة

وبعد ان تناولنا طعام المساء خرجنا للنزهة في البلدة فدخلنا نادياً كانت فيه جوقة من العسكر يعزفون بالآلات ويحيط بهم عدد لا يُحصى من اهل المدينة . ومما سرَّنا مشاهدتهُ تمارين حربيَّة كان يتولاها الجند في غابة قريبة من البلدة . وكانوا يطلقون المدافع على اهداف مرتفعة او حجارة منصوبة . وقد شاهدنا بين تلك المدافع مدفعاً لم يُرَ دخان

طلقته لكنَّنا سمعنا لهُ دويًّا ارتجَّت الارض بسببهِ فلمَّا اصاب الغرض تصاعد دخانهُ وانتشر الغبار في الجوّ

ودخلنا هناك بستانًا وجدنا فيهِ ضروب الاثمار تنوء تحت عبئها الاغصان لكثرتها . وقد قالوا ذلك بحسن قيامتهم بفلاحة الارض وتوزيع المياه وتقليم الشجر يجرون في كل ذلك على قوانين علميَّة تضاعف جنى الاثمار فتزيد محصولاتها كثيرًا على بساتيننا الشرقيَّة وكذلك ادخلنا صديقنا الى معمل دفاتر ابتداء هناك اخوهُ يشتغل فيهِ عددٌ من الصنعة واكثرهم من البنات والفتيات بكل نظام وحسن تدبير . ومعظم الشغل دائر على أدوات جديدة تقرّ العمل وتوفر عدد المصطنعات

وكان في البلدة سيِّدة سكنت مصر عدَّة سنين فلمَّا علمت بقدومنا ارسلت فدعتنا الى بيتها لشرب عندها القهوة . فاستقبلنا عند ما دخلنا البيت ابنها الصغير وسلَّم علينا بالعربيَّة بهذه الالفاظ : « ليلة سعيدة ايها الاحباب » . فقضينا هناك ساعة نذكر الاوطان وعادات الشرق ثم وشربنا القهوة العربيَّة كما يعدّها اهل بلادنا . وكان طعامنا في ذلك المساء لبنًا دسمًا غاية في اللذة تناولناه في جنينة عموميَّة لم ينقصنا شيءٌ فيها من اسباب المسرَّات

وفي صباح يوم السبت ٢٢ آب ودَّعنا صديقنا السويسري شاكرين لطفهُ ووداده فركبنا قطارًا صغيرًا بطيء السير أقلَّنا بعد ساعة الى مدينة سان غال (Saint-Gall) حاضرة ايالة سويسريَّة تُعرف باسمها وتُعدّ من اخصب ايالات القطر السويسري لكثرة مراعيها واحراجها ووفرة مواشيها والبانها وفيها معامل للجبن السويسري المشهور . ولها ايضًا مصانع كثيرة للجوخ والجلود والمنسوجات والتطريز . والتجارة في انحائها قائمة على ساق وقدم لاسيما في حاضرتها . وهي مدينة من احفل بلاد سويسرة بالسكان الذين يبلغ عددهم خمسين الفًا وموقعها على نهر جار اسمهُ شتايناخ يصبّ في بحيرة كنستنزة وضواحيها تمتدّ على ضفَّتيهِ على مسافة ساعة بين الخضرة والبساتين . واصل هذه المدينة دير بُني للرهبان نُعرف باسم بانيهِ القديس غال في القرن السابع ولم يزل ينمو ويتَّسع حتى استفاضت سمعتهُ واحتفل من حولهِ السكان وشُيِّدت بقربهِ المباني . وكان رهبان الدير يُعنون بالعلوم فيقصدهم الطلبة ويأخذون عنهم حتى ألغوا قبل مئة سنة وخُصَّ ديرهم بالمتاحف الوطنيَّة منها مجاميع من المواليد الطبيعيَّة والمصنوعات

اليدوية. ومكتبة هذا الدير من اغنى الخزائن الكتبيَّة بينها المخطوطات البديعة النقش العزيز الوجود. ومدينة سان غال تسبق سواها من المدن باقمشتها التي تنقل الى اطراف المعمور وهي شهيرة ايضاً بشرائطها المخرَّمة والمزركشة ولها معامل متقنة لدباغة الجلود. وقد زرنا كنيستها الكاتدرائيَّة فدهشنا ممَّا رأينا فيها الاعمال الهندسيَّة والنقوش العجيبة في جميع اطرافها ويزين جدرانها عدد لا يحصى من التماثيل والرسوم والصور اشتغل بها مدَّة اجيال متوالية كبار المهندسين وجلَّة المصورين. وترى بين صحن الكنيسة والهيكل الكبير حاجزاً من الحديد المنقوش المفرغ يمثل اشكالاً هندسيَّة وضروب التصاوير. وفيها ايضاً ارغن كبير كارغن فريبورغ لكنَّنا لم نسمع نغماته. وكنَّا قصدنا التجوُّل في البلدة لولا ما جادنا به السماء من المطر المدرار فبرحنا المدينة بعد ساعتين متوجهين الى بحيرة كونستنزة والسفر بين سان غال وتلك البحيرة نزهة تروق العين وتشرح الصدر فتمرُّ بين المروج والرياض النضرة. وكانت البحيرة تلوح لنا من وقت الى آخر فتسبي محاسنها قلوبنا حتى اقتربنا منها وجرينا بقربها لكنَّ الامطار كانت تتهطَّل علينا فتحرمنا التمتُّع بها

ومعلوم انَّ بحيرة كنستنزة واقعة بين سويسرة والمانيــة فليس لسويسرة منها الَّا طرفها. وباقي المياه لمملكة المانية. فلما وصلنا الى حدود البلادين مررنا بجمرك الالمان حيث أُجري التفتيش المعتاد على المواد المنوع تهريبهـا ثم دخلنا مدينة كنستنزة التي تخصُّ المانية وهي واقعة في دوقيَّة باد فسمعنا هناك لاول مرَّة اللغة الالمانية الصرفة التي تحلو على الاطفال الالمان وتطرب الاذن بلينها دون السويسريين المعروفين بلهجتهم الخشنة. وكونستنزة هذه ليست مدينة كبيرة فانَّ سكَّانها لا يربون على ٢١,٠٠٠. وهي تمتاز بفرضتها التي تقصدها السفن المتعدّدة ومن حركة مراكبها يُستدلُّ على خطر تجارتهـا. وليس في المدينة ما يستحقُّ الذكر الا انَّها حسنة البناء تزينها الشوارع الرحبة المظلَّلــة باشجار الحور. وكنيستها الكاتدرائيَّة قديمة بُوشر في بنائها في القرن الحادي عشر وفيها عُقد مجمع كنَسي من السنة ١٤١٤ الى ١٤١٨ به تمَّ الشقاق الغربي المشؤوم. وللكنيسة برج مرتفع يبلغ علوه ٧٦ متراً ترى العين من اعلاه البحيرة مع كل نواحيها وفي هذه المدينة شربنا لاوَّل مرَّة الجعة (البيرة) الالمانيَّة التي يُضرب المثل في لذَّتها

ومن بحيرة كنستنزة هذه يخرج سيّد الانهار الالمانيَّة اي نهر الرين وعلى مسافة ثلاث ساعات من منبعه جنادلهُ التي يتوارد الزوَّار الى معاينتهـا من كل صقع وناد.

فقصدنا نحن ايضاً ان نسير اليها لنسرّح الابصار في مباهجها فركبنا سفينة من السفن الحديدة التي تنقل الركاب الى المدن الواقعة على مسير المياه. وكان مجراها اوَّلاً على نهر الرين نفسه ثم دخلت بحيرة أخرى ثم عادت الى النهر. وقضينا كذلك ثلاث ساعات بسرور لا يوصف لان المناظر التي تجتذب ابصارنا كانت نهاية في الحسن فضفّتا النهر واطراف البحيرات كأنها مفروشة بالنبات تظلّلها الاشجار والحدائق. ويزيد على هذه المشاهد بهجة رونق البلاد والقرى التي بُنيت في تلك الجهات. وربما كان يضيق بنا المسلك بين الضفّتين او ينفرج على اختلاف سعة الوادي. وقد نصبت جسور عديدة فوق النهر فتمرّ السفن تحتها بعد ان تحني مدخنها للمرور. وبعض هذه الجسور تجري فوقها السكك الحديديَّة ومنها جسر بني فوقهُ منازل وتنفذ فيهِ النوافذ يمناً وشمالاً. أمَّا عمق المياه فيختلف والربَّان علامات مركوزة في النهر او عائمة على البحيرات او منائر يستدلُّ بها على قعر المياه فيحيد عن الصخور لئلَّا ترتطم بها سفينتهُ

وكان نزولنا في بلد شفهوز (Schaffhouse) في مساء النهار اذ كانت الشمس في أفق السماء ترسل اشعتها الاخيرة الارجوانيَّة على تلك الضواحي فتكسوها حللاً بهيَّة ذات ألوان زاهية. فنزلنا في احد فنادق البلدة لنبيت فيها ليلنا. وكان سبقتنا اليه احدى شركات الجناز فزيَّنت بعض حُجرهِ بالالوية والرايات لفرحها بما نالتهُ من الفوز في سباق جرى في المدينة. فأعدت لهم وليمة فاخرة وشربوا نخب اصحابهم وغنُّوا الاغاني الوطنيَّة المألوفة عندهم. ومدينة شفهوز هذه عدد اهلها ١٨٠٠٠ يقصدها السيَّاح لقربها من شلَّالات الرين

*

قمنا في غلس النهار التالي وبعد تناول الطعام اسرعنا الى محطَّة الترامواي الكهربائي فركبنا قطاره الذي اقلّنا مع جملة الزوَّار الى قرية تبعد ربع الساعة. فكنَّا نسمع عن بعد صوت المياه المتحدرة يزيد عجيجها كلَّما نتقدَّم الى الامام. ولما انتهينا الى القرية تبعنا القوم المتسارعين الى جهة النهر. فبعد قليل تراءى لنا منظر عجيب كاد يفتن حواسَّنا فرأينا مياه النهر مندفعة من اعالي الصخور وهي تتناثر كالغبار الابيض او كقطع اللجين وكانت الشمس الطالعة تضرب اشعَّتها في تلك الدقائق المنتثرة فتلوِّنها بكل الوان قوس قزح فتاوح لك بين صفراء وحمراء وخضراء وزرقاء. فكأنها انوار ساطعة تبهر

الابصار باشكالها والمياه تتناثر يمينًا وشمالا على بُعد عظيم ومنها ما يزبد ويفور ومنها ما يتصادم على الصخور فيتكسَّر قصدًا ويتطاير شعاعًا حتى يسيل برغوة وافرة الى النهر فينضمَّ الى باقي المياه ويجري بهدو وجلال . وهناك قصر يُدعى قصر لوفان يكشف على الشلالة فيراها الناظر بكل رونقها المهيب ومشهدها البديع وذلك باجرة رسميَّة تساوي فرنكًا واحدًا فدفعناه بطيب الخاطر لنمتّع العيون بهذا المرأى الفريد الذي تقصر الاقلام عن استيفاء وصفه . ومما يزيد هذا المنظر جمالًا صخرة عظيمة تقسم جري المياه الى قسمين وعليها تتدفَّق المياه الزاخرة بهيئات تختلف اشكالها ومحاسنها . وهو منظر شائق لا انساه طول عمري

ولهذا القصر مزيَّة خصوصيَّة قصدها بُناتهُ فانهم جهَّزوا اطرافهُ بادوات مختلفة نظموا دوزانها مع اصوات المياه في عجيجها فاذا قرَّبها الانسان من آذانه سمع نغمات موسيقيَّة منها رخيمة لطيفة ومنها ضخمة غليظة . وكذلك اذا جلست هناك على اسكمنة او كرسيّ شنَّف مسامعك صوت من الاصوات الشجيَّة

وبعد هذا نزلنا الى الجنينة حيث أُقيمت نوافذ بزجاجات ملوَّنة فينظر فيها الناظر مياه الشلالات فتروعهُ الوانها وتاخذ بابصاره محاسنها

ثم أُلبسنا اصحاب القصر مشمَّعات وقرَّبونا من الشلَّالات فكانت مياهها تتناثر علينا ونحن نشخص الى المياه في اصطدامها وفورانها وتحامُل بعض اقسامها على البعض وهي تهدر وتزمجر فترنُّ بها الآذان ويدوي بها صماخ المسامع . وكان هناك قوارب يركبها الزوَّار فنزلنا فيها لنقطع عليها النهر ونرى الشلَّالات طولًا وعرضًا فتجوَّلنا في وسطه واطرافه ولم ندع شيئًا يفوتنا من محاسن الطبيعة المتجمعة في ذلك المكان . وكان لتجوُّلنا فائدة أُخرى ان نشاهد المعامل التي شيَّدها ارباب الصناعة على جانبي الشلالات ليستخدموا قوَّة المياه بدلًا من البخار اقتصادًا . وخلاصة القول انَّا كنا أَجلنا الطرف في تلك المياه حارت افكارنا وسبَّحنا الخالق بمشاهد تلك المناظر السحريَّة التي يزيد عجب المرء منها على قدر ما يزيد التأمل في خواصها الطبيعيَّة

ومما شاهدنا في ذلك اليوم بعد رجوعنا من شلالات الرين برجٌ قديم شيّد على ربوة مطلَّة على ذلك النهر بُني سنة ١٥٦٤ وجدرانهُ يبلغ سمكها ستَّة امتار وليس لهذا البرج سوى قاعة واحدة متَّسعة الارجاء وفي اعلاها قبَّة مرتفعة لها نوافذ تنيرها من

علٍ. وعلى سطحها مدفعان قديمان من النحاس وللبرج اقبية كانوا يذخرون فيها المؤنة ويسجنون الاشقياء

بعد ان زرنا الرين وشلالاته حان لنا الرجوع من رحلتنا. وفارقنا حينئذٍ صديقنا السويسري وبقيت انا والشقيق فركبنا القطار لنعود على غير طريقنا السابقة على مدينة بال ونتنق سان غوتار

بال احدى أمهات المدن السويسريَّة وحاضرة اقصى مقاطعاتها الشماليَّة. والمدينة تمتدُّ على ضفَّتي نهر الرين في موقع غاية في الحسن والبهجة وقد مُدَّ بين الجهتين جسر كبير من الحجر طولهُ ١٩٥ مترًا وعرضهُ ١٨ م وعليهِ ابنية مختلفة كالمطاعم والقهاوى والمنتديات العموميَّة. وعلوُّهُ فوق النهر بالغ حتى ان المراكب البخاريَّة تمرُّ تحتهُ بلا مانع وبال مدينة تجارية فيها كثير من ارباب الثروة وفيها نُقام الاسواق الحافلة. واهاليها اليوم يبلغون ١٢٥,٠٠٠ ويغلب عليهم لين الطبع والاستقامة في المعاملات والهمَّة في ادارة الاشغال وحبّ الحرية فيتفاخرون بمبادئهم الديمقراطيَّة وقد اقاموا لذلك في باحة المدينة اثرًا من رخام يشير الى فوزهم بالاستقلال الجنسي. وكان يوم دخولنا المدينة يوم الاحد وفيه تفتح المعاهد الاثرية والمتاحف العظيمة فيزورها الناس مجانًا. ودخلنا اوَّلًا الدار المختصَّة بمآثر مدينة بال القديمة فكان هناك حُجر شتّى وقد خصُّوا كل حجرة بشيءٍ من العاديات كالاكسية العسكرية والاسلحة القديمة من ظرَّان وخشب وحديد وبندقيَّات يبلغ طول الواحدة اربعة امتار. وقد جُمعت في بعض القاعات الاثاث البيتيَّة كالفرش والسُّرر وادوات الطبخ وآنية الطعام وغير ذلك ممَّا ينطق بلسان حالهِ عن عادات سكَّان البلد سابقًا. وقد خُصَّ معهد آخر بالآثار الدينيَّة فوجدنا بينها الاواني النفيسة كالدملان والذخائر والكاسات والاشمَّة الذهبيَّة المرصَّعة بالحجارة الكريمة المحكمة الصُّنع الدقيقة العمل وكذلك التماثيل الدينيَّة منها بالرخام ومنها بالخشب وبينها الحليّ والحلل الاسقفيَّة والكهنوتيَّة. واكثر هذه الطرائف كان يخصُّ قديمًا دير الرهبان الفرنسيسيين الذين سكنوا بال مدَّة اجيال مديدة

ثم انتقلنا الى متحف اخر جمعوا فيهِ مآثر الفنون الجميلة من نقش وتصوير ورسوم ودُمى وهناك عجائب من اعمال والصنائع العلوم الطبيعيَّة والجيولوجيا والمعادن والنبات والحيوانات المفقودة وغيرها وكلّها مصبَّر على هيئتها الطبيعيَّة. وهذه الاثار منتظمة في

ثماني عشرة قاعة يضيع فيها الزائر لاتساعها ويتلى من كثرة مناخرها وبدائعها

ومما يستحق الذكر من مباني بال بعد لن صبرت على مكايد الزمان من حريق وزلازل كنيستها الكاتدرائية اقامها الملك هنريكوس الثاني سنة ١٠٢٤ واتقن البناة هندستها وهي مشيدة بالآجر الاحمر البديع تتخللهُ صفائح من السُّبورة (ardoise) المختلفة الالوان . وجدران الكنيسة منقوشة بالتصاوير الممثلة للسيد المسيح ورسله الكرام والاخبار الانجيلية . ولهذه الكنيسة برجان يبلغ علوهما مئتي قدم ونيف . وهي اليوم في ايدي البروتستانت

ومنها دار الصناعة التي جُمعت فيها كل الاسلحة القديمة التي كانت شائعة في حروب الاعصار السالفة . ومنها ايضاً مكتبتها الغنيّة بالمطبوعات النادرة والمخطوطات البديعة

*

وفي اليوم التالي وهو الاثنين الواقع في ٢٤ آب ركبنا القطار الى مدينة اولتن قاصدين السفر منها الى نفق سان غوتار . وهذا النفق يُعدّ من المشروعات الكبيرة التي قام بها الاوربيون في عهدنا . ويجاريه اليوم نفق سمبلون الذي وصفهُ المشرق سابقاً (٨ : ٣٢٤ و٩ : ٦٤) وقد تكلّف المهندسون في حفر نفق سان غوتار ٥٦ مليوناً من الفرنكات ويبلغ طولهُ خمسة عشر كيلومتراً كالمسافة بين بيروت والمعاملتين وهو يصعد في قلب الجبل الى علوّ ١١٥٤ متراً . وقد تمّ حفرهُ بثماني سنوات من السنة ١٨٧٢ الى ١٨٨٠ . أمّا السفر في هذا النفق فانهُ باديَ بدء يتقبض لهُ الصدر اذ يرى المرء نفسهُ منفصلاً عن عالم الاحياء داخلاً في مدفن عظيم وفي ليل دامس مدلهمّ ثم يطمئن قلبهُ بعد مدّة ويرى هناك من المناظر الطبيعيّة ما يشغل فكرهُ ويثلج صدرهُ فانّ شركة السكة الحديديّة قد تأنّقت في بناء النفق وانارت جهاته بالانوار الكهربائية وجملت لهُ بعض محطّات وجعلت لمياه الجبل مجاري الى غير ذلك مما يجعل اجتياز النفق من المشاهد السارّة . والسكة الحديديّة قبل دخولها النفق وبعد خروجها منهُ تمرّ في جبال وتلال وغابات واودية تتوفّر فيها المناظر البهجة التي تحيك في قلب المسافر وهو يسير من نفق الى آخر وجداول المياه المتحدرة من اعالي الجبال تسيل على جانبيهِ يمنةً ويسرةً على هيئات شائقة

ثم قضينا الأيام التالية في بعض الاسفار الى جهات اخرى من سويسرة حتى تجاوزنا حدودها وبلغنا مدينة ميلانو الايطالية الشهيرة بآثارها البنائية والفنية ونحن نضرب هنا عن وصفها لنقتصر كلامنا على سويسرة . وكان آخر ما شاهدناه عند رجوعنا الى سويسرة فجعلناه كمسك ختام سفرتنا الى مدينة جنيفة عاصمة هذه البلاد

وجنيفة اسم لاحدى مقاطعات سويسرة الصغيرة وخطرها بوجود العاصمة فيها . وهذه المدينة موقعها في جنوبيّ غربيّ البلاد عند مخرج نهر الرون من البحيرة المعروفة باسمها وسكانها نحو ١٢٠,٠٠٠ . والمدينة قديمة العهد وكان احسن ما فيها منظرها على شواطئ بحيرتها وكانت ابنيتها حرجة واطئة وازقّتها صغيرة ضيّقة الّا انّ اهلها لم يزالوا منذ خمسين سنة يجدّدون مبانيها ويحسّنون هندستها وينتحون لها الشوارع وينظّمون الساحات والحدائق ويشيّدون لها المعاهد الكبيرة حتى صارت تعارض اليوم حواضر اوربّة . وفي احدى ساحاتها اثر لاحد المحسنين الى المدينة اوقف على ترميمها وتحسينها عشرين مليونًا من الفرنكات اسمهُ برونزويك (Brunswick) والاثر بناء من رخام على نسق قبّة ميلانو جعل في وسط مقام تحدق به زهور وتجري المياه وعلى مقدّمته اسدان من رخام يهاب الانسان منظرهما لدقّة صنعهما

اما مناظر جنيفة الطبيعيّة فحدّث عنها ولا حرج فانّ بحيرتها والنهر الخارج منها والجزائر التي في وسطها وضواحي المدينة والجبال الشاهقة المحدقة بها المكسوّة بالثلوج المتجدّدة تملأ العين وتسبي القلوب فقضينا هناك ساعات نعدّها اطيب آنات حياتنا واعذبها واطربها ولو حاولنا وصف كل ما عاينّا فيها لخرجنا عن الحدود التي تحرّيناها . فلا نذكر من ذلك الّا زيارتنا الى بستان دعوهُ بستان المياه الغزيرة لكثرة احواضها ومجاريها وفي وسطها نافورة يفور منها الماء الى علو تسعين مترًا فينعكس على شبه المظلّة الى مسافة بعيدة بهندسة رائقة وهم ينيرونها بالليل بالانوار الكهربائيّة . ويقال انها اعظم نافورة تُعرف في المعمور

هذا بعض من عدّ رويناه لمواطنينا الاعزّاء رغبةً منّا ان يذوقوا شيئًا من تلك اللذّات التي حظينا بها في تلك الرحلة التي لم يخطر على بالنا ان نتمتّع يومًا بمثلها في حياتنا

مطبوعات شرقية جديدة

ΧΡΥΣΟΣΤΟΜΙΚΑ : Studi e ricerche intorno a S. Giovanni Crisostomo a cura del Comitato per il XV centenario della sua morte (407-1907), *Roma*, *Pustet*, 1908. fasc. II et III, 245-1152.

ابحاث في سيرة واعمال القديس يوحنا فم الذهب بنسبة يوبيلهِ المئويّ

هذان القسمان الاخيران من تلك الابحاث التي أجمع على نشرهـا اولئك العلماء الذين حضروا في عاصمة الكثلكة الاعياد الجليلة المقامة بنسبة المئة الخامسة عشرة لوفاة القديس يوحنَّا فم الذهب وقد مرَّ لنا وصف قسمها الاول (اطلب المشرق ١١ : ٨٧١) . والقسم الثاني من تلك « الخرُسوزتميَّات » مدار قطبهِ على ليتورجيَّة الذهبي الفم واصولها واتّساع دائرتها والتغييرات التي طرأت عليها وترجمتهـا الى لغات شتَّى . وهذا القسم يبلغ وحدهُ ٧٥٠ صفحة قد افتتحهُ حضرة الاب البندكتيّ دون بلاسيد دي ميستر (D. Placide de Meester) ببحث خطير عن اصول الليتورجيَّة المنسوبة الى يوحنَّا فم الذهب فتتبَّع احوالها منذ اول ما عُرفت في الكنيسة على عهد صاحبها الى ان بلغت في القرن الرابع عشر صورةً ثابتة بقيت عليها وذلك بعد ان تصرَّفت فيها الكنيسة البوزنطيَّة بعض التصرُّف كزيادة صلوات ورتب واستبدال بعض الاقسام بغيرها . وقد راجع المؤلف في بحثهِ هذا عددًا عديدًا من المخطوطات القديمة المحتوية لتلك الليترجيَّة ليقابل بينها ودقَّق اصلاحاتهـا . ويلي هذا البحث درسان الاوَّل للراهب المكيتاري حنَّا اوشر (G. Aucher) في الترجمة الارمنيَّة لليتورجيَّة القديس يوحنَّا فم الذهب وما بقي منهـا في الطقس الارمني . والثاني لحضرة الاب قسطنطين باشا في الترجمة العربيَّة لليتورجيَّة الخنَّاويَّة وقد اثبت هنـاك نسخةً وجدهـا في احد المخطوطات من القرن الثامن عشر كان نابلها الطيّب الذكر افثيموس صيفي على نسخة خُطَّت في السنة ٦٧٦٩ للعالم اي ١٢٦١ للمسيح الا انَّ حضرة الاب يزعم انَّ اصل تلك الترجمة من القرن العاشر ولم يأتِ على ذلك ببرهـان قاطع . وفي اثر هذين الدرسين مقالة حضرة الاب كيرلُس شارون التي وصفنا محاسنهـا (في المشرق ١١ : ٩٠٥) . وعقيب هذه المقالة اربعة ابحاث في ليتورجيَّة القديس في اللغات الرومانيَّة لاحد

اساتذة المدرسة الاكليريكيَّة في بترش الاب اونر (CH. Auner) . ثم في علاقة الليتورجيَّة الحنَّاوية مع الليتورجيَّة المنسوبة لنسطور والليتورجيَّة الشائعة في الكنائس السريانيَّة للاديب بمشتارك (A. Baumstark) وهو بحث غاية في الافادة عقَّبهُ الابوان الكسيس بيتروفسكي (A. Petrowski) الروسي ويوسف بوتشيان (G. Bocian) الروثني بمقالتين في ترجمة طقس يوحنَّا فم الذهب الى اللغات الصقليَّة . وبهما ينتهي القسم الثاني . امَّا القسم الثالث فيحتوي على ابحاث اخرى منها ميمر للقديس نشرهُ الخوري الفاضل الياس بطارخ من اساتذة مدرسة الآباء البيض في الصلاحيَّة ثم مقالتان حسنتان في تاريخ ذخائر القديس يوحنَّا والتصاوير التي تمثل سحنتهُ للاستاذ فوشر باكي (W. Becchi) والراهب الباسيلي اطون روكي (A. Rocchi) من رهبان غروتا فرَّاتا . فمن هذا النظر الاجمالي يرى قرَّاؤنا ما يحتويهِ هذا المجموع من الآثار النفيسة فعساهُ ان يروج في كل جهات الشرق ليزيد بهِ اقبال مواطنينا على درس اعمال الذهبي الفم والتقي بامثالهِ الشرفة ل . ش

I Konversations-Lexicon, 3te Aufl., 8 vols, gr. in-8, *Herder, Fribourg-en-Brisgau*, 1902-1907.
II Wetzer und Welte's Kirchenlexicon oder Encyklopaedie der Katholischen Theologie und ihrer Hilfswissenschaften, 2te *Aufl., 12 vols gr. in-8, ibidem, plus un vol. de Tables ou Index.*

دائرتان علميَّتان كاثوليكيتان

انَّ اتساع العلوم وتقدُّمها في ايامنا يقتضي باصطناع دوائر علميَّة لكل صنفٍ منها ليسهل على الادباء والكتبة الرجوع اليها ولاسيَّما اذا صعب عليهم مراجعة المكاتب العموميَّة وتآليف الخاصَّة . وقد سبق المشرق فعرَّف صدور بعض هذه المصنَّفات الجامعة وبيَّن فوائدها . وممَّا اتحفنا بهِ آخرًا محلّ هردر في مدينة فريبورغ من اعمال المانيَّة دائرتان للمعارف الكاثوليكيَّة سعى بنشرهما صاحب هذا المحلّ بمساعدة جلَّة العلماء الكاثوليك في المانيَّة . وقد راجت هاتان الدائرتان حتى بلغت الواحدة بعد زمن قليل طبعتها الثالثة والاخرى الطبعة الثانية وكلتاهما باللغة الالمانيَّة . اما الدائرة الاولى المدعوَّة (Konversations Lexicon) فجامعة العلوم والمعارف العموميَّة ولا تختصُّ بعلم منفرد فهي كدائرة لاروس (Larousse) الشهيرة . وهذه الطبعة الثالثة منها قد استأنف اصحابها

كتابتها لتصحيحها وتحسينها حتى يجوز القول فيها انها كتاب جديد موافق تماماً لاحوال المعارف وترقيها الحديث. ومن مزايا هذه الدائرة انها تشمل كل الموادّ الكاثوليكيّة والعلوم الدينيّة فضلًا عن المدنيّة فتعرّفها بكل ضبط وتدقيق وفقاً لمعلومات اقتبسها الكتبة من مصادر ثقة. نعم انّ هذه الدائرة قد كُتبت خصوصاً لاهل المانية فتفيدهم قبل الكل عن الامور المتوطة ببلادهم الّا انّها لا تقتصر على ذلك بل تمتدُّ الى المعارف الشائعة في بقيّة البلاد حتى اقطارنا الشرقيّة. ومما يستحقّ الذكر في هذه الدائرة تراجم مشاهير الرجال القدماء والمحدثين فانّها في الغالب تجمع باسطر قليلة لباب اعمال اصحابها وتصفهم وصفاً صادقاً خالياً من كل غرض شخصي. ويزيد قيمة هذه الدائرة ما أُودع فيها من التصاوير والرسوم والخوارط لتعريف كل مادّة تقتضي تلك الصور والنقوش. ذلك الى هوادة سعر هذه الدائرة التي تبلغ نيّفاً و ١٤,٠٠٠ عمود وتباع بثمنه مرك فقط

اما الدائرة الثانية فدينيّة محضة جمع فيها مؤلفوها الكاثوليكيّون على طريقة المعجمات كل العلوم الدينيّة ولاسيما اللاهوتيّة وما يلحق بها من المعارف. وكانت الطبعة الاولى صدرت باسم العالمين ڤتسر (Wetzer) وڤالت (Welte) اما هذه الطبعة الثانية فقد أنست الطبعة الاولى بما اصابت من التحسينات في كل اقسامها بهمّة المستأنف لطبعها السيّد كولن (Mgr. Kaulen) الشهير بعلومه. وقد استدعى السيّد المومى اليه نخبة الكتبة الكاثوليك ليساعدوهُ في هذا العمل فاجاب الى دعوته ثلاثة آلادلة واثنان وعشرون اسقفاً وعدد وافر من كهنة ورهبان واساتذة الكليّات الالمانيّة فكتب كل منهم في هذه الدائرة فصلًا او فصولًا في العلوم التي اختصُّوا بها من لاهوت او فلسفة او آداب او تاريخ ديني او مسائل اجتماعيّة. وفي آخر كل مادّة اسم كاتبها ليكون القارئ على بصيرة من علمه وتزيد ثقتهُ بكلامه وقد بلغ عدد هؤلاء المصنفين نحو الستمائة. فترى بذلك تضافر الالمان على تصنيف هذه الدائرة لتكون في ايدي الكاثوليك كسلاحة يتّخذون منها بزّة جهادهم لمحاربة الكفر وردّ الاضاليل العصريّة وكمنهل صافٍ يستقون منهُ التعاليم الصادقة التي تسلّموها من اجدادهم وورثوها بسلسلة وثقى من الرسل الاطهار وأحبار الكنيسة والمجامع البيعيّة ومصنّفات الاباء. وكان بودّنا ان نأخذ بعض ابواب هذه الدائرة وننقلها الى العربيّة ليعرف الشرقيّون كم

نحن محتاجون الى دائرة علميَّة في لغتنا العربيَّة يقوم بتصنيفها كل علماء الشرق فيودعونها خلاصة المعارف الدينيَّة لاسيما الشرقيَّة فانَّ مشروعًا كهذا يؤدي لاهل بلادنا خدمًا لا تُقدَّر قيمتها. فانَّ الدائرة البستانيَّة لا تتعرَّض الى الابحاث الدينيَّة وربما دخل فيها مزاعم تحتاج الى اصلاح او تفنيد. وزد على ذلك ان هذه الدائرة الى الان لم تتمّ وعتقت اقسامها الاولى حتى لم تعد موافقة لتقدُّم العلوم والاكتشافات التي تجري يومًا بعد آخر. وفي الختام نتمنَّى للدائرة الالمانية كل رواج ونهنّئ محل هِردر الذي انجز العمل على غاية ما كان يُرام من حُسن الطبع والاتقان ل. ش

I ETUDES DE LINGUISTIQUE. I, PHONÉTIQUE DES PARLERS de Chio par **H. Pernot**, avec 1 Carte et 85 fig., 1907. in-8°, pp. 571
II GIROLAMO GERMANO: GRAMMAIRE ET VOCABULAIRE DU GREC VULGAIRE publiée par le même d'après l'éd. de 1622. Thèse complémentaire, 1907, in-8°, pp. 320

النبرات الصوتية في لهجة اهل ساقس — اصول اللغة اليونانيَّة الحديثة

السيو برنو معلّم اللغة اليونانيَّة الحديثة في مكتب اللغات الشرقيَّة الحيَّة في باريس فلم يكتفِ بشرح اصول تلك اللغة لتلامذته بل اراد ان يرسم لهم النبرات الصوتيَّة التي اعتادها اليونان في كلامهم فعمد لهذه الغاية الى بعض الادوات الراسمة للصوت ولحركات الجهاز الحلقي كالفونغراف وغيره وجمل بازائها عددًا عديدًا من اهل ساقس اخذهم بين الصبيان والشبَّان والكهول والشيوخ والنساء فكانوا يتكلَّمون بلغتهم عند فوهة تلك الادوات بحيث يرتسم صوتهم في دقته وضخامته وارتفاعه وامتداده وانتقل مدَّة ثانية الشير من بلدة الى بلدة لهذه الغاية حتى جمع من تلك النبرات ما مكَّنهُ من درس احوال اصوات المتكلّمين ومن وضع قوانين مقرَّرة في ذلك. وهذه الطريقة العلميَّة هي احسن طريقة لضبط تلك الاصوات وتعريف خواصّها. فنهنّئ الكاتب على تحقيق امانيه واثبات رأيه بالحجج الدامغة التي لا يمكن تفنيدها. وقد كتبنا للمؤلف رسالة لنثني على عمله وبلَّغناهُ بعض ملحوظات يمكنهُ الاستفادة منها لمعارضة لهجة ساقس مع لهجة بر الاناضول — وقد اضاف السيو برنو الى تأليفه ملحقًا يزيدهُ حظوى في اعين العلماء وذلك انهُ وقف على كتاب ألَّفهُ احد الاباء اليسوعيين في اصول اللغة اليونانيَّة الحديثة ومعجم الفاظها وهو الاب جيرولامو جرمانو احد المرسلين الى ساقس في اوائل القرن السابع

(١٦٣٢ـ ١٦٨) وعرف ما في تجديد طبعه من الفوائد بعد ان نفد طبعهُ منذ زمن طويل. فاعاد طبعهُ وحشّاهُ بالملحوظات المفيدة. ومما نشكر عليه المسيو برنو اقرارهُ بانّ هذا التأليف احسن واضبط ما وُضع سابقاً في اللغة اليونانيَّة الحديثة كما انَّهُ بيَّن ان بعضاً من كتبة عصرنا سرقوا من هذا الكتاب اشياء متعدّدة دون ان يعلنوا باسم الاب جرمانو وكتابهِ. فنكرّر شكرنا للمسيو برنو على هذه التحفة الجديدة التي خدم بها الدروس اليونانيَّة. ل. ر

Syrische Rechtsbücher herausgegeben und übersetzt von **Eduard Sachau**, II Bd. *Berlin, Reimer*, 1908, XXXIV-211

التآليف السريانيَّة في الحقوق الشرعيَّة

هذا جزء ثانٍ من سفر جليل سبق لنا وصفهُ قبل سنتين (المشرق ١٠: ٥٧٠). فقد بيَّنا اذ ذاك ما للكلدان والسريان من التآليف في الفرائض الشرعيَّة والحقوق الكنسيَّة التي كان معظمها مدفوناً في خزائن الكتب ريثما يخرجها من زواياها اصحاب الفضل وأُولو البحث والتنقيب. وكأنَّ المستشرق الشهير ومستشار الدولة الالمانيَّة في عاصمة برلين الدكتور ادورد ساخو اوقف نفسهُ لهذه المهمَّة. وهذا القسم الثاني قد ضمَّنهُ ثلاثة تآليف خطيرة من اعمال بطاركة النساطرة في الحق القانوني كُتبت بين القرن السابع والتاسع للمسيح اوَّلها لحنانيشوع نحو السنة ٦٩٢ والثاني لطيموثاوس الكبير المتوفَّى سنة ٨٢٣ وآخرها ليشوع برنون خلف طيموثاوس. والتآليف الثلاثة منقولة عن مخطوطات سريانيَّة قديمة للمتحف البرجياني في رومية الطيّب الذكر السيّد اقليميس داود وهي اليوم في الخزانة الواتيكانيَّة. والاوَّل منها يحتوي احكاماً شرعيَّة لحنانيشوع ارسلها الى اساقفة ورهبان وكهنة جواباً على اسئلتهم او حكماً فصلًا على مشكلاتهم وهي في ٢٥ باباً. والثاني هو مجموع قوانين بيعيَّة عددها ٩٩ مدارها على الرسوم والفرائض النصرانيَّة كالزيجة والطلاق والوراثة وغير ذلك. امَّا الكتاب الثالث ففيه احكام ونواميس وقوانين يبلغ عددها ١٣٠ في الطقوس والرتب والفرائض الاهليَّة وغيرها. وكل هذه التآليف قد نشرها الدكتور ساخو باصلها الكلداني ونقلها الى الالمانيَّة واضاف اليها شروحاً وملحوظات متعدّدة وختمها بالفهارس المفيدة. فهذا الكتاب كما ترى من انفع الكتب لتعريف الاصول الشرعيَّة الجارية عند الشرقيين

وكثير منها صدى للشرائع اليمية الموروثة من تعاليم الرسل والاباء الاولين قبل انفصال النساطرة عن الكنيسة الجامعة. فنحضّ محبي الآثار الشرقيّة على اقتنائهِ ل.ش

BARON V. R. ROSEN Nekrolog sostawil **N. Wieseloffsky,** St *Pétersbourg,* 1908

ترجمة حياة البارون ڤ.ر. روزن

هما الجديدان لا يزال دولابهما دائرًا والمرء لا يشعر بدورانهِ الحثيث حتى يُخني بهِ الدهر او يُصاب عزيز لهُ بسهم المنون. وها قد مضى نيف وسنة على وفاة المستشرق الروسي الشهير البارون ڤون روزن الذي سبق المشرق (١١: ١٧١) فاثبت جملة من حياتهِ. ولا يزال ذكر هذا العالم المقدام مطبوعًا في قلب تلامذتهِ ورفقائهِ كأنَّ الأيام لم تزدهم الّا اسفًا على فقدهِ. وممّا يدلُّ على شدّة تعلّقهم بشخصهِ الكريم ما كتبهُ او خطب بهِ اكثرهم في مدحهِ وبيان فضلهِ حتى انهُ لو جُمع ما نشروهُ في ذلك لألّف مجلدًا ضخمًا. وكفى برهانًا على علو مقامهِ في النفوس ما تُلي فيهِ من الخطب في جلسة خصوصيّة عقدها القسم الشرقيّ من جمعيّة الابحاث على الآثار القديمة في تشرين الثاني فاطنب الخطباء في محامد ذلك الرئيس الهمام والاستاذ الفاضل. ومما بلغنا من هذا القبيل ترجمة لحياة الفقيد ألّفها العلّامة ڤيسلوڤسكي الذي نيطت بهِ آخرًا رئاسة القسم الشرقي من الجمعيّة المومأ اليها. وكان حضرة المؤلف صديقًا للبارون يعرفهُ منذ حداثة سنهِ فجاء كلامهُ ابلغ معنى واوفى بالغرض المقصود فوصفهُ وصفًا يليق بفضلهِ ويثبت سامي مقامهِ بين العلماء المستشرقين. فنشكر لجناب الكاتب حسن مسعاهُ ونتمنّى للمتخرّجين على البارون ان يتقفّوا آثارهُ ويحيوا من بعدهِ معارفهُ. وقد قيل ان من خلّف لم يمت

ا. كراتشقوفسكي

Romans de **Guy d'Aveline:** I VERS LA LUMIÈRE. II IMPÉRATRICE ET VESTALE. III CATHERINE D'ALEXANDRIE. IV ATTILA. V LE SECRET DE ROCAMADOUR, *Paris, Ch. Amat.*

روايات تاريخيّة لصاحبها غوي داڤلين

انَّ الروايات المختلقة تذكيهِ غالبًا المخيّلة وتهيّج العواطف والاحساسات دون ان تخاف من فعلها اثرًا باقيًا. فعرض لبعض القصّاصين أن يضمنوا تلك الروايات احداثًا

تاريخيَّة تزيد نفعها للقرَّاء اذ تجمع الافادة واللذَّة معاً. والروايات الخمس التي ترى هنا عنوانها وضعها بالفرنسويَّة احد الكتبة المحدثين على هذا المنوال فانها تحتوي بعض الوقائع الصحيحة مفرغةً في قالب وهميّ. فنها ما يصف احداثاً شرقيَّة كالاوَّل الذي مدارهُ على اعمال السيّد المسيح وتعاليمهِ الالهيَّة. والثالث يصف احوال الاسكندريَّة واستشهاد القديسة كاترينا. ومنها ما يختصُّ بأحداث جرت في الغرب كالثاني الذي يصف رومية في عهد نيرون وظهور النصرانيَّة فيها وكالحكايتين الأُخرَيَين عن اتيلا الفاتح وتنصُّر بلاد غاليا. فكل هذه الروايات مكتوبة بقلم سيَّال تمتزج احوالها امتزاج الماء بالراح فلا يباشر القارئ مطالعتها حتى يرغب في مواصلة قراءتهِ الى آخر الكتاب. فنحث محبي القصص ولاسيما الاحداث ان يقتنوها فانَّها افضل من كثير من الحكايات التي يتداولها البعض وهي تصلح لأن تُعطى في المدارس كجوائز للاحداث وقد أثنى عليها ارباب الدين والادباء. معاً ونال كاتبها بسببها امتيازات شرفيَّة ل. ش

نبذة تاريخية

فيما جرى لطائفة الروم الكاثوليك منذ سنة ١٨٣٧ فما بعدها

بقلم السعيد الذكر بطريركها مكسيموس مظلوم

عُني بطبعها الخوري قسطنطين الباشا ب. م. (زحلة ١٩٠٩ ص ٢٥٧)

انَّ المشروعات الخطيرة التي قام بها الطيّب الذكر السيّد البطريرك مكسيموس مظلوم خدمةً لطائفتهِ ليحلَّ ربقتها ويحرّرها من عبوديَّة المضايقين عليها لم تُنشر حتى اليوم تفاصيلها خوفاً من مراقبة المطبوعات. وكان كثير من البراءات والصكوك والتقارير التي تتضمَّن تلك الاخبار مطموراً في مكاتب الخاصَّة وكادت تأخذهُ يد الضياع. فقد حدا بحضرة الاب قسطنطين الباشا حبُّهُ لملّتهِ ان يبحث عن تلك الاوراق الثمينة حتى اسعدهُ الحظ على وجودها فجمعها ورتَّبها ونشرها بنصوصها ليستطيع المؤرخون المدققون ان يقتبسوا من انوارها لكتابة تاريخ صادق لتلك الحوادث المنسيَّة التي اوات السيّد البطريرك فخراً عظيماً وذكراً مخلَّداً. وقد قدَّم حضرة الاب على هذه الآثار مقدَّمةً ذكر فيها بعض الامور العموميَّة عن طائفة الروم الكاثوليك منها

اصل تسميتهم بالملكين. وقولهُ في ذلك صولب الّا انّ استشهادهُ في ذيل الصفحة د « بمعاهدة عمر لصفرونيوس » ليس بمقنع اذ ينكر العلماء صحّة المعاهدة التي يتداولها اليوم بعض الناس. أمّا المعاهدة الاصليّة فلا يُعرف لها أثر صحيح. وكذلك ادّعاؤهُ بانّ « لقب كاثوليك لها قديم قدم النصرانية » يحتاج الى ايضاح. فان لقب كاثوليك لم يُعطَ لكنيسة خصوصيَّة بل هو سمة كنيسة المسيح في كل البلاد شرقاً وغرباً. فبقولهِ « لها » جعل احدى مميّزات الكنيسة العامّة كسمة كنيسة خاصّة. ثم انهُ من المعلوم انّ الروم الملكيين لم يُطلق عليهم اسم الكاثوليك قبل القرن الثامن عشر فعُرفوا بهِ تمييزاً لهم من غير الكاثوليك

لبنان والدستور العثماني

بحث سياسي قانوني تاريخي بقلم بولس مسعد

طُبع في مصر بمطبعة المعارف ١٩٠٩ (ص ٩٢)

بنسبة اعلان الدستور قد خطر على بال اللبنانيين ان يُولوا جبلهم امتيازات ونعماً جديدة فكثر القال والقيل وربما خُدع بعضهم بظواهر الانقلاب الجديد فصرفوا بصرهم عما في ايديهم من الخير الثابت ليطلبوا خيراً موهوماً. على ان غيرهم من العقلاء تصدُّوا لهؤلاء الجهال واوقفوهم عند حدّهم وردُّوا على مزاعمهم الباطلة. ومن جملتهم جناب الاديب بولس افندي مسعد الذي صنَّف هذا الكتاب وبحث فيه « بحثاً سياسياً قانونياً تاريخياً في موقف لبنان الحاضر ازاء الدولة العثمانيّة قبل الدستور وبعدهُ » فافتتحهُ بذكر جغرافيَّة لبنان فبيَّن موقعهُ وحدودهُ ومساحتهُ وسكّانهُ ثم عرَّف تقاسيمهُ الاداريّة ونظامهُ وما منحتهُ الدول من الحقوق والامتيازات بعد حوادث السنة ١٨٦٠. ثم اخذ المؤلف ينتقد اقوال المائلين الى انتهاك حرمة هذا النظام والطالبين الانضمام الى الدولة فبيَّن غلطهم وفنَّد تعليلاتهم الواهنة مستنداً في قولهِ الى السياسيين المحنّكين. وقد اعجبنا من اقوالهِ ما زيَّف بهِ مزاعم المتحاملين زوراً على الاكليرس مع ما اداهُ من الخدم العديدة للوطن واهلهِ مدَّة قرون متواصلة. وخلاصة القول انَّ كل هذه الفصول مرزونة بمعيار الفكر تستحقّ اعتبار أولي النظر والتمعُّل وقد ألحق الكاتب هذا القسم بمختصر لتاريخ الجبل دعاهُ « صفحة من تاريخ لبنان » وعندنا انه كان الاولى بهِ لو

ضرب عن تلك الصفحة صفحاً لأنَّ فيها اموراً كثيرة لا تنطبق مع التاريخ الصحيح كاقواله عن اصل الفينيقيين وعن المردة والصليبيين والتتر والروم ولو اردنا ذكرها بالتفصيل لطال بنا الكلام ل. ش

الكلم المنظوم

قاله جميل صدقي الزهاوي

القسم الاوَّل . طُبع بالمطبعة الاهلية في بيروت (١٣٢٧ ص ١١٨)

يفتخر المسلمون في العراق برصافيهم وزهاويهم كما يتباهى المصريون بحافظهم وشوقيهم ورافعيهم واهل الشام بخيّاطهم وسلامهم . ولكلّ هؤلاء الشعراء مآثر طيّبة منها مجموعة ومنها متفرّقة يتداولها الادباء ويتناشدها البلغاء . وقد انتهى الينا آخراً القسم الاوَّل من منظومات الشاعر العراقي العصري جميل صدقي الزهاوي الذي كانت تردان بقصائده الجرائد المصريّة وهو ينشرها غالباً فيها بامضاء مستعار . فنعمّ لناظم عقدها ان يجمعها في كتاب مستقل ليسنى للادباء جنى نورها وتنسّم ريّاها وقد اثبتها صاحبها الفاضل كما حضرت لهُ دون ترتيب خاص في المعاني او القوافي فينتقل القارئ من وصف الى مديح الى رثاء الى حماسة الى غزل دون سأم او ملل كما يتحوَّل زائر حديقة غنّاء من زهر الى آخر ومن ثمرة طيّبة الى اطيب منها . وكثير من هذه المنظومات قالها الشاعر الحرّ في ايّام الاستبداد . فاشار بها الى سوء حال البلاد . وما يومله من اصلاح الفساد . فعسى ان تكون الاحوال الجديدة طبق امانيه بظل الرشاد ل. ش

هدايا أُرسلت الى ادارة المشرق

١ منشور غبطة السيّد الياس بطرس الحويك بطريرك انطاكية وسائر المشرق الى اكليروس الطائفة المارونية

٢ منشور رعائي لغبطة السيد بولس بطرس الثاني عشر بطريرك قيليقية وجثليق طائفة الارمن الكاثوليك

٣ رواية عودة قلب الاسد . تأليف القصّاص الشهير والتر سكوت معرَّبة بقلم سليم افندي الخازن اللبناني نُشرت تباعاً في جريدة مرآة الحق في نيويرك (١٩٠٨ ص ٢٩٨)

٤ قانون اخويّة الانفس المطهريّة المارونية اللبنانية (مطبعة الاجتهاد ١٩٠٩ ص ٤٨)

٥ برنامج اخوية الانفس المطهرية المارونية لسنتها التاسعة عشرة (مطبعة التوفيق ١٩٠٩ ص ٢٥)

٦ فرض اخوية العذراء البريئة من دنس الخطية الاصلية. قطع صغير ص ٤٨ يباع في مكتبة المدارس لصاحبها يوسف افندي صفير

٧ فرض اخوية الميتة الصالحة للاب بيرون اليسوعي عرَّبهُ عن الفرنسوية الخوري نقولا صفير قطع صغير ص ١٢٠ يباع في المكتبة عينها

٨ مناثر الطقسيَّات وضعهُ وعلَّق حواشيهُ بعض آباء الرسالة اللبنانيَّة المارونيَّة . طبع في المطبعة الكاثوليكيَّة (١٩٠٩ ص٢٧٢) وسنعود الى ذكرهِ في عدد قادم

٩ تقرير على تاريخ الادبيَّات العربيَّة مقدَّم لصاحب الدولة الامير احمد فؤاد باشا رئيس مجلس الجامعة المصرية من صالح علي بمصلحة الريّ بنظارة الاشغال العموميَّة (١٣٢٧-١٩٠٩ بالعربية والفرنسويَّة والانكليزية

شَذَرَاتٌ

نفثات الاسحار في سيّدة أيار وردتنا هذه القصيدة من نظم حضرة المنسنيور بطرس حبيقة وعدد المجلّة على وشك تمامهِ فلم يسمح لنا ضيق المكان ان نذكر منها الَّا بعض ابياتها. وهذا مطلعها :

أيا ايَّار ما ابهى سناكا ... وما احلى الطبيعةَ في حلاكا
نسيمك ينعش الارواحَ حتَّى ... يُجَسّدنا النعيمُ على صباكا
لنا فيك الحياة على رواء ... ولا نهوى سواها في سواكا
فتربُك عنبرٌ وسماك درٌّ ... وماؤك كوثرٌ يروي ثراكا

الى ان قال :

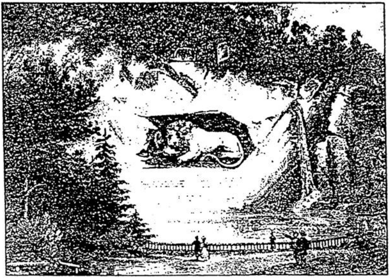
عليك البكرُ قد خامت وشاحاً ... بوشي الطهر يحتبك احتباكا
هي البكر التي لا عيب فيها ... يقصّر عن مداركها حجاكا
وعذراء العذارى مَن يداها ... من الآثام مزَّقتا الشباكا
وداست راس ابليس وسادت ... على قوَّاتهِ حتَّى تشاكى
الهي انت لم تخلق نظيرًا ... لها بين الملائكة في سماكا

حتى ختمها بقولهِ :

لأنتِ ملاذ مبتئسٍ وعانٍ ... ونحنا عنكِ نطَّلبُ انفكاكا
فكوني عوننا طردًا وعكساً ... لِنختم هنا حلوِ هناكا

اسد لوسرن قد ورد في المشرق (ص ١١٨) في سياحة سويسرة وصف هذا الاسد الذي يُعدّ من تحف المصنوعات. الَّا ان الراوي لم يُصب في بيان

معناهُ فنبّهنا على ذلك احد الادباء وافادنا ان هذا الاسد المجروح لم يدلّ على سقوط آل بربون بل نحتهُ احد كبار المصورين ذكرًا لامانة الحرس السويسريّ الذي كان في خدمة الملك لويس السادس عشر فدافع هؤلاء الابطال عن البلاط الملكيّ وماتوا كرماء وهم يردُّون هجمة الثائرين الذين هجموا على قصر الملك وذلك في ١٠ آب سنة ١٧٩٢ واسماؤهم مرقومة على لوح من الرخام في مقام مجاور للكهف وبينهم احد الشرفاء من أُسرة دي مَلِيَرْدوس الشهيرة في سويسرة. ودونك صورة الاسد:



حرّية الاقلام من نظم مكاتبنا الاديب الشيخ احمد افندي تقي الدين المحامي القانونيّ:

قد آن للأقلام ان تتكلّما | من بعد ما قطرَ المدادُ بها دَما
وخلا مجالٌ للمقيَّد فاشتكى | أوَ تعتبُ المظلومَ ان يتبسَّما
حُبِسَت ابيَّات النفوس على ظما | فرَعَيْن في الإصلاح نبتًا للظما
حتى مللنَ من القيود فجاءها | حزبُ الإخاء بأخمَصَيهِ محطِّما
فتجارتِ الصُّحف الاسيرة وانبرى | قلمُ الاديب مكبّرًا ومعظّما

وتفجّرت بدد النفوس كأنها ⠀⠀ بركانُ ثار باللهيب تظلّما
واستقبل القوم النيام فتاتهم ⠀⠀ في يقظةٍ ولكم غشتهم نوّما
يُغضُون من حذر الهلاك على قذى ⠀⠀ ان القذى في العين مَجلَبَةُ العمى
كم اشعلوا قَبَساً بحالكة الدُّجى ⠀⠀ واضأهم ليلُ السياسة مظلما
حتى اذا جاد الالهُ بنظرةٍ ⠀⠀ بكرَ الفلاح مصلّياً ومسلّما
هيَ نعمة نسج الاباء بُرودها ⠀⠀ فعلى الرعيّة أن تسوس الأنعما
هي مُزنةٌ من فضل دستورٍ همَتْ ⠀⠀ فعلى الثرى شكرُ السحابِ اذا همى

*

عيد الحياة ألا فُديتَ بأنفُس ⠀⠀ احييتَها ومنعتَها ان تُظلما
هلّا رأيت لغير شعبك مظهرًا ⠀⠀ يحكي ببهجته القيامة في السما
وسمعتَ في الآفاقِ صوتا صارخاً ⠀⠀ الجيش قد أحيا الرعية بعد ما..
وشهدت في بيروت حاضرة النهى ⠀⠀ قسًّا يصافح بالمحبة مُسلما.
ووعيتَ توقيعَ الاخاء مرجّعاً ⠀⠀ لحن التحالف والرقيّ مُرنّما
مات التعصُّب في الضمائر بعد ما ⠀⠀ عاش الزمان بموتها متحكما
وقضى التحزُّب بالخمول مكفّناً ⠀⠀ وجزاؤه في مذهبي ان يُرجما

*

أبني اليراع ترفّقوا فمن الهوى ⠀⠀ ألّا نُندّد بالضلال الاسهما
ان الجرائد كالطبيب عدوُّها ⠀⠀ داء النفوس وهمُّها ان يُعدما
فعلى المداوي قبل اعطاء الدوا ⠀⠀ جسُّ المريض وفحصُهُ متفهما
ان البلاد كثيرةٌ امراضُها ⠀⠀ فعلى الرَّاسي ان يداوي الألزما.
فعلى الجرائد ان تكون حكيمةً ⠀⠀ تجتثُّ من داء النفوس المؤلما
وعلى الرعيّة شكر حزب الاتحا ⠀⠀ د فانهُ أخلى السجين واكرما

وقال عن لسان لبنان يخاطب الحرية (من مقالة):

كم انا مشتاق الى وصلكِ ⠀⠀ كم انا مهجور على هجركِ
تركتِني اشقى بهول النوى ⠀⠀ فشاب رأسي من دجى صدّكِ
وعافني كل اديب سعى ⠀⠀ لوطن ساد بهِ عرشكِ

ومضّني كل يراع نأى | من شدة الضغط الى قربكِ
حتى قضى الله بان ترجعي | بكل تكريم الى اهلكِ
فانت لي ان شئتِ ولكن انا | بسندٍ سُجّل وقفًا لكِ

وقال يوم اعلان الدستور بدهًا في حفلة :

يا دولةً نشطت من ضعفها فغدت | اعجوبة الناس من عربٍ ومن عجمِ
بالأمس قد دُفنت في رمس ظلمتها | واليوم قد بُعثت من عالم العدمِ
فعزّزت مبدأ الدستور وانتصرت | بالسيف والسيفُ لم يُخضب بلون دمِ (١
فلتحيَ يا مجلس النوّاب منتصرًا | تعيد للشرق مجد السيف والقلمِ

❊ المعرض الوطني العثماني ❊ أرسلت الينا لائحة هذا المعرض الذي أُجّل افتتاحهُ الى اوّل آب من السنة الجارية في مدينة زحلة « تحت رعاية واهتمام حضرة الوزير الخطير دولتلو يوسف باشا متصرف جبل لبنان » . واللائحة المذكورة تبيّن ما للمعارض في البلاد عمومًا وفي الشأم خصوصًا من الفوائد للمصالح الوطنيّة كتنشيط الصناعة وتوفير المصنوعات ورواج الاعمال التجاريّة وانشاء الشركات وفتح المعامل . ويلي ذلك بيان شروط المعرض الذي يقبل كل اصناف حاصلات ومصنوعات سوريا وحيواناتها الاهليّة مع افراز محلّ مخصوص للمصنوعات الاجنبيّة ايضًا . وللمعرض عمدة ولجان ووكلاء يُرجع اليهم في كل اشغال المعرض . فنتمنى لهذا المشروع كل نجاح باتفاق كل الطوائف في حسن ترتيبهِ وتنظيم اشغالهِ ومجازاة الذين استحقّوا الجوائز من العارضين الى غير ذلك من الاصول المرعيّة في مثل هذه الاسواق الكبيرة في البلاد المتمدنة

❊ رسالة مبعوثة من عند الله ❊ هي رسالة طُبعت في بيروت في ٢٧ ك ٢ من السنة الجارية يدّعي كاتبها انّها انحدرت من السماء على البطريرك اثناسيوس في القدس الشريف فيها اصناف المواعيد لمن يكرّمون يوم الاحد ويقومون بوصيّته الكنيسة بتقديس ذلك النهار . كما انّها تحتوي ضروب الوعيد والتهديد بالعقوبات على من يهمل تلك الوصيّة . وقد سبق لنا في المشرق (٩ : ٣٣١) ذكر كتاب نشرهُ المستشرق الالماني الدكتور بيتنر (M. Bittner) في هذا الصدد وبيّنا هناك انّ هذه الرسالة موضوعة لا صحّة لها . فحذارِ من خداع المدلّسين

---

١) على انّ الامور الاخيرة لم تَعُد تسمح لنا بذكر دستور لم يسقهِ دم الابرار (المشرق)

الاب لافون الفلكي البلجكي ذكرنا سابقًا وفاة الاب اليسوعي لافون في كلكوتا واثبتنا كلام المقتطف في الثناء عليهِ وبلغنا ان احد المبعوثين في دار ندوة العموم في لندن قد لهج بثنائهِ فذكرهُ كمثال العلم وقدوة الفضل في الهند بما اداهُ هناك من الخدم للعلوم الفلكيَّة وما نشرهُ من المصنَّفات الجليلة في ذلك

فائدة طوابع البريد منذ ستّ عشرة سنة اجتمع بعض الكاثوليك في لياج من اعمال بلجكة فاخذوا يجمعون الطوابع العتيقة فيبيعونها للراغبين فيها وقد خصّوا ريعها بالمشروعات الخيريَّة والرسالات الاجنبيَّة . ومجموع ما ربحوا بذلك يبلغ اليوم ١٥٠,٠٠٠ فرنك

أسئلة وأجوبة

س سألنا مستفيد عن مثل سمعهُ في العراق هذا منطوقهُ : « مطرة في نيسان خير من الفي سان » فطلب ما معنى السان

ج المراد بالمثل انَّ المطر الواقع في نيسان اصلح للارض وازكى للنبات من الفي سانٍ وسانٍ اسم الفاعل من سنا الجملُ يسنو او سنت السانية وهي الناقة يُستقى عليها من البئر . اي مطر نيسان انفع للنبات من الفي دابَّة سانية تنقل الماء من الآبار . والسانية ايضًا الدلو مع ادواتها

س سألنا احد المهاجرين الى الترنسفال أيجوز للشرقي الكاثوليكي ان يتمم واجباته الدينيَّة في غير طقسهِ اذا وُجد كاهن من طقسهِ في البلاد التي هاجر اليها

اتمام الشرقيين لواجباتهم الدينيَّة في البلاد الاجنبيَّة

ج انَّ الشرقيين اذا وُجدوا في بلاد اجنبيَّة كافريقية واميركة وكان ثمَّ كاهن شرقي مُرسَل من رؤسائهِ الشرعيين وصرَّفهُ اسقف البلد الذي هو فيهِ كانت حقوقهُ في توزيع الاسرار بالنسبة الى ابناء طقسهِ كحقوق الكهنة الغربيين من رعاة البلد . فالامر اذن منوط بارادة اسقف المحلّ الذي يخضع لهُ اولئك الكهنة الشرقيون . وعليهِ يجب على الشرقيين ان يتمموا عندهُ الواجبات الدينيَّة المختصَّة بالرعاة اعني العماد والزواج والمناولة الفصحية والاسرار الاخيرة . امَّا حضور القدَّاس ايَّام الآحاد والاعياد والمناولات التقويَّة فللمؤمن الشرقي في ذلك ما للغربي من الاجازات وحقوق التصرُّف في كنيستهِ او غيرها كما يشاء . ل . ش